NOVEL | رواية

@ketab_n
11/1/2015

هنري ميلر

شيطان في الجَنَّة

ترجمة
شاكر لُعيبي

ثاؤنة

رواية

هنري ميلر

شيطان في الجنة

@ketab_n

ترجمة

شاكر لعيبي

ماثورة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شيطان في الجنة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
١٩٩٧/١٢/١٨٣٠

٨١٣
ميلر، هنري
شيطان في الجنة/هنري ميلر، ترجمة شاكر لعيبي.
ط١ ـ عمّان : دار منارات، ١٩٩٧
(١١٤) ص.
ر.إ. ١٩٩٧/١٢/١٨٣٠
الواصفات : الآداب//الرواية المترجمة/

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 9957-09-006-2(ردمك)

شيطان في الجنة

هنري ميلر (كاتب من أمريكا)

الطبعة الأولى : منارات 1986

الإصدار الثاني : أزمنة 1999

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق ©

أزمنة للنشر والتوزيع

تلفاكس : 5522544

ص.ب: 950252 عمّان 11195

شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة 55 (الدوحة) ، ط4

info@azminah.com info@azminah.net

Website:http://www.azminah.com

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

تصميم الغلاف: إلياس فركوح

لوحة الغلاف : من رسومات هنري ميللر

تاريخ الصدور : كانون ثاني/يناير 2015

Twitter: @ketab_n

ولد هنري ميللر سنة ١٨٩١ في نيويورك في الحي الشعبي بروكلين. وبدأ حياته بصعوبة (موظفاً لدى ابيه الخياط، رئيس الموزعين في شركة البرقيات ويسترن يونين تلغراف، . . . الخ). تفرّغ سنة ١٩٢٤ للكتابة. زار أوروبا سنة ١٩٢٨ وأستقرّ في باريس سنة ١٩٣٠. كتب (مدار السرطان، في سنة ١٩٣٤ و(مدار الجدي) ١٩٣٩. عرف بسببهما باسم مؤلف المدارات. كما كتب (ربيع اسود) سنة ١٩٣٦. رجع الى نيويرك سنة ١٩٤٠ بعد ان نشر (كابوس مكيُف) و(عملاق ماروسي) ليستقرّ سنة ١٩٤٤ في كاليفورنيا في منطقة (بيك سور) حيث تدور احداث (شيطان في الجنة). مجمل أعماله ذات نكهة صادقة وصريحة وبمثابة سيرة شخصية أدبية إعترافية. نُشر (شيطان في الجنة) لأول مرة في سنة ١٩٥٦ ثم عاد ميللر إلى نشره ضمن كتابه المسمّى (بيك سور وبرتقالات هير ونيموس بوش) الصادر سنة ١٩٥٧ ولكن تحت عنوان فرعي جديد دون أن يغيّر منه شيئاً آخر.

لغة ميللر في هذا الكتاب كما في كتبه الأخرى التي يعرفها قرّاء العربية (مدار الجدي) و(رامبو وزمن القتلة) و(ربيع أسود) و(عملاق ماروسي) تتميز بنبرة جامحة، ذات حرقة وصدق داخلي، واستخدامات ثقافية شتّى كما استخدامات محلية وعامية متفرقة تعطي لأسلوبه فرادة وطرافةً وصدقاً نادرات.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كانت (أناييس نين)[1] هي التي قدّمتني الى كونراد تير يكـان. فلقـد قادتـه في يومٍ من خريف سنـة ١٩٣٦ الى الأستـوديو الذي أشغله في فيللا (سورا). لم تكن انطباعاتي الاولى عنه مريحة كثيراً على العموم. بدا الرجل لي كئيباً، إرشاديّ النزعة، قاطعاً في أفكاره، مركزّاً على نفسه، كل كيانه مُشبعٌ بنوع من القدرية.

وصـل في نهايـة الظهـيرة، وبعـد أن ثرثـرنـا قليلاً ذهبنا لنأكل في مطعم صغير في شارع اورليـان. طريقتـه في تتبـع الوجبة جعلتني أتخيلّ مبالغته في الدقة. طيلة الوجبة لم يتوقف عن الكلام دون أن يمنعه ذلك من استحسان الطعام، لكنه كان ذلك النوع من الحديث الذي لا يتناسب مع الاكل ويخلق عُسراً في الهضم. كانت تنبعث منه رائحة استشعرتها رغماً عني: خليط من الكولونيا والرماد الرطب والتبغ الرديء، يتخلل كل ذلك شيء من عطرٍ راقٍ يتعذر إدراكه. في وقت لاحق فان الخليط قد امتزج كله بفوحانٍ واحد لا ريب فيه.. كانت رائحة الموت.

قبل أن أتعرفّ على تير يكان كنت قد ولجتُ في أوساط فن التنجيم، ووجدتُ في ادواردو سانجيس، وهـو ابن عـم لأنـاييس نين، رجـلاً ذا تبحّر واسعٍ، اختار دراسة التنجيم كعلم للمـداواة، وكـان يذكّـر المـرء في الغـالب بتلك الـدودة التي يُقال إنها واحدة من مخلوقات الله الاكثر نفعاً. كانت إمكانات ادواردو في الالتهام والهضم أعجوبية، ومثل الدودة فإن أعماله قد نُفـذت لفـائـدة الآخـرين قبل أي شيء وليس لصالحه. كان ادواردو قد انغمس آنئذ بدراسة تقـاطـع بلوتـون ـ نبتون ـ اورانوس، لذا فقد كان ينقبّ بعمق في التاريخ والميتافيزيك والسير

---

(١) أناييس نين: روائية وناقدة أميركية.

Twitter: @ketab_n

بحثاً عن مواد قابلة لتعزيز حدوساته، وهجم في النهاية على موضوع كبير: مدارات الأجرام.

مع تير يكان دخلت الى مياهٍ جديدة. لم يكن مجرد منجّمٍ، وعالمٍ مشبع بفلسفةٍ مغلقة فحسب، انما كان ايضاً مؤمناً بالقوى الخفيّة. كان له مظهر ساحر، أميل إلى الطول، جيّد البناء، ذو كتفين عريضين، ثقيل وبطيء أثناء الحركة. كان يمكن أن يُعتبر من عائلة أمريكية ـ هندية. هو نفسه يفضل الاعتقاد، كما اكدّ لي لاحقاً، بوجود علاقة بين تير يكان وموهيكان[1]. وفي لحظات تكدّره فإن تعابيره كانت تأخذ مسحة مضحكة كما لو انه كان يتقمص عامداً الـ (موهيكان الأخير). في لحظة مثل هذه فان رأسه المرّبع ووجنتيه العاليتين وبرودة طبعه ولا أباليته كانت كلها تعطيه هيئة صوّانٍ محزون.

داخلياً كان كائناً متعكرّاً، رجل تشنجاتٍ ونزوات بإرادة خاملة. قاده اعتياده نمطاً ثابتاً من الحياة الى رتابة ناسكٍ أومُتقشفٍ. من الصعب القول فيما اذا عُوِّد على هذا الطراز من العيش أم قَبله قسراً. لم يلمحّ ابداً الى الحياة التي يمكن ان يحب. كان سلوكه ينتمي لرجلٍ جرّب الالوان كلها ثم انقاد الى مصيره أخيراً، لرجلٍ قادر على الانسجام مع العقاب اكثر من انسجامه مع السعادة. كان ثمة جانب انثوي في طبيعتهِ، ملحوظ جداً وليس خلواً من الجاذبية، يستثمره لجلب الضرر لنفسه، كان (الغندور) المزمن الذي يمارس حياة المتسكع ولكن في الماضي كلياً.

ودونما شك فان أحسن وصف يمكن تقديمه له في بداية علاقتنا هو انه كان رجلاً يجرّ قبره معه برباطة جأش.

سوى انني استطعت الاقتناع بأنه كان يملك وجوهاً متعددة. كان له جلد طريّ، وحسّاس للغاية، خصوصاً عند ذلكم الفوحان الذي كان يقلقه ويظهره متقلباً وعاطفياً مثل بنتٍ في السادسة عشر. ومع انه لم يكن مستقيماً فقد كان يجهد أن يكونه عند الحد الأعلى، وان يكون عادلاً، ونزيهاً، مع انني قد احسستُ غريزياً بانه كان، بشكل أساسيّ، مخادعاً، وفي الحقيقة فإن هذه الخديعة التي لا توصف هي اول شيء اكتشفته لديه دون أن أمتلك ـ

(١) موهيكان إحدى قبائل الهنود الحمر الأمريكية.

Twitter: @ketab_n

من جهة أخرى ـ ما يؤيد مشاعري . أتذكر بأني أزحتُ هذه الفكرة بعزم عن عقلي وأحللتُ محلها مفهوماً غامضاً بانني في حضور ذكاء مشبوه .

أما ما يمكن ان ابدوه انا له في الايام الأولى من علاقتنا فهو من جهتي محض تخمين . كان يجهل كتاباتي باستثناء بضعة شذرات ظهرت مترجمة لي في الصحافة الفرنسية . كان يعرف تاريخ ولادتي طبعا . وبعد مضي بعض الوقت من لقائنا الأول كشف لي طالعي (واذا لم اكن مخطئا فهو الذي اكتشف الخطأ في ساعة ميلادي التي كنت أعينها باعتبارها منتصف الليل بدلا من منتصف النهار) . كانت احاديثنا تجري باللغة الفرنسية التي كنت بعيدا عن التحدث بها بيسر . كان هذا خسارة . ذلك انه ما كان يمتلك عبقرية المناقشة فحسب ، انما ايضا الذائقة اللغوية . كان يتحدث الفرنسية شاعراً . بل انه كان يعبد الدقة والتدرجات قبل كل شيء . في كل مرة نجد فيها أنفسنا سوية كنت أختبر متعة مزدوجة : أن أتثقف ـ وليس بفن التنجيم فقط ـ وأن أبتهج بسماع الموسيقى ، لقد كان يلعب باللغة كما يلعب موسيقي على آلته . واضافة لهذا فهنالك سعادته بان أصغي اليه وهو يروي ملحاً عن شخصيات مشهورة لم أعرفها الا من خلال الكتب . باختصار كنت بالنسبة اليه مستمعاً مثاليا . وأية متعة هائلة بالنسبة لرجل يحب الكلام ، خاصة مناجاة نفسه ، بأن يجد مستمعاً منتبهاً ، متلهفاً وعارفاً؟

لم اكن أجهل بدوري فن طرح الاسئلة ، الاسئلة المثمرة ، واذا ما أخذنا كل الامور بعين الاعتبار فلقد بدوت أمام ناظريه حيوانا غريبا . مغترب عن بروكلين ، محب لفرنسا ، أزعر ، كاتب عند عتبة النجاح ، بريء ، متحمس ، قابل للتأثر مثل اسفنجة ، مهتم بكل شيء وأبدو في الظاهر على غير ما هدى . هذه هي صورتي التي بقيت لدي منذ تلك الفترة .

وإضافة لذلك فقد كنت أحب العيش في مجتمع (هوكان يحب كل شيء ما عدا هذا) . والاسوأ فانني كنت من برج الجدي ولكن ليس من نفس دائرته الفلكية . أما في الاعمار فلم نكن نختلف سوى ببضعة سنوات .

يبدو أنني كنت اشكل له نوعا من منشط . لا مبالاتي وتفاؤ لي الطبيعي غدت متمماً لتشاؤ مه المتأصل ولاحتراسه . كنت صريحاً ولا ألوك كلماتي ، وكان متنبهاً ومتحفظاً ، نزعتي

Twitter: @ketab_n

هذه كانت تدفعني للتنـاثـر بجميـع الاتجـاهات، بينما كان هو يضيق حقل انتباهه إراديا لكي يستطيـع أن يركـز فيـه كيانه كله. كان لديه عقل ومنطق فرنسي بينما كنت اتناقض في الغالب واتماس مع الاشياء. ما كنا نتملكه بشكل مشترك هو الطبيعة العميقة لبرج الجدي. في كتابه «مـرآة فن التنجيم» اختصـر بجـزالـة وحذاقة الخصائص الكبرى لنموذج برج الجدي، ففي الفصـل المعنـون (التمـاثـل) يقـدم البرج كالتالي: «فلاسفة. محققون. مشعوذون. نساك. حفارو قبور. متسولون»، «عمق، عزلة، كرب»، «لجج، كهوف، اماكن مهجورة». ها هنا بعض الاسـماء المتفـرقـة من برج الجدي التي يعطي: «دانتي، ميكيل انجلو، دوستوفسكي، غريكـو، شوبنهـاور، تولستـوي، سيزان، ادغار الن بو، مكسيم غوركي..». أضف اليها بعضاً من اكثر خصائصهم اشتراكا حسب تيريكان:

«خطرون، صموتون، كتومون، يحبون العزلة وكل ما هو سري، تأمليون».

«حزينون وثقال».

«ولدوا عجائز».

«رأوا الشر قبل أن يروا الخير. الضعف هو أول ما تلاحظ بصائرهم في كل مجال».

«توبة، تأسفات، ندم سرمدي».

«يمكثون لدى ذكريات الجروح».

«لا يضحكون ابدا أو نادرا، واذا فعلوا فبضحك تهكمي».

«عميقون لكن ثقال».

«يبرعمون ببطء لكن بصعوبة».

« عنيدون ومصرون، عمال لا يتعبون، يستخدمون أي شيء قابل للتجمع او للتطوير».

«رغباتهم للتعلم شرهة. يتواثبون على المشاريع بأنفاس قصيرة. يتعاطون دراسة أشياء صعبة وتجريدية».

« يعيشون باكثر من مستوى في آن واحد. يستطيعون تتبع افكار متنوعة في ذات اللحظة».

«لا يستهدون سوى باللجج».

Twitter: @ketab_n

هناك ثلاث دوائر في كل منزل برجي ، وفيما يتعلق بنمط الدائرة الاولى (انا ولدت في ٢٦ كانون الاول) فهاك ما يذكره تير يكان بهذا الشأن : «صبور جداً وعنيد . قادر على أية صعوبة في سبيل النجاح . يصل بقوة المثابرة ولكن خطوة إثر خطوة . ثمة اتجاه للمبالغة في أهمية الحياة الدنيوية ، منغلق ثابت في محبته وفي كراهيته . فكرة عالية عن نفسه» .

أستشهد بهذه المقطوعات لاسباب متنوعة . القراء سيكتشفون ، كل على طريقته الخاصة ، الأهمية التي ينبغي أولا ينبغي تعليقها عليها . لكن ، لنكمل . عندما التقيت تير يكان للمرة الاولى كان يعيش (وسيكون الفعل ـ يوجد ـ اكثر صحة) في فندق متواضع للغاية . فندق موديال في شارع نوتردام دولوريت . قبل ذلك كان قد اجتاز أزمة كبيرة : فقدان ثروته . هكذا كان يعيش فقيرا تماما وليس لديه اقل التدابير ، أو أقل الاهتمام للمجريات العملية ، متدبرا أمره من يوم لآخر . كفطور كان يأخذ قهوة وفطائر الى غرفته ، وكان يرضى بنفس الوجبة غالبا عند العشاء دون أيها وجبة غداء بينهما .

كانت انابيس رسولا من السماء اليه . كانت تنجده بأقصى الجهد بمبالغ متواضعة ، سوى انه لم يكن محميها الوحيد ، بل كانت لديها اعداد كبيرة من هؤلاء الذين تشعر إزاءهم بواجب القيام بالمساعدة ، وما كان هو ليشك ابدا بأن انابيس وهي تقدمني اليه انما كانت تود التخفيف عن جزء من صعوباتها . كانت ترتب وضعها ليجري كل شيء بلطافة ، برزانة وحصافة كما هي عادتها . ولكنها انتهت معه الى قطيعة كاملة .

لقد كانت تعرف تماماً انني لست بقادر على أن اخذه على عاتقي ، سوى من الوجهة الاخلاقية ، ولكنها لم تكن تجهل بانني شخص لبيب وداهية ، وبأن لدي كومة من الأصدقاء والمعارف . واذا متعتني الشخصية بشكل كاف فسأصل ربما الى ان ارتب وضعي لمساعدتها ، مؤقتا على الاقل .

ولم تخطىء كثيرا . فلقد كان رأيي بالطبع ان الامر الاول الاكثر أهمية هو إيجاد مخرج ما لكي يأكل هذا المسكين بطريقة اكثر انتظاما ووفرة . ولعدم قدرتي على ضمان الوسائل لتدبير وجبات ثلاث له فقد امكنني أن ارتب الامر لكي يأكل وجبة دسمة . كنت أدعوه في بعض الاحيان الى الغداء أو العشاء في الخارج ، ولكنني كنت أدعوه في الأغلب الى مأدبة في بيتي

Twitter: @ketab_n

حيث أجهد متفننا بعمل وجبة وفيرة لذيذة له. ولما كان يصل نصف ميت بسبب الجوع، فلم يكن مدهشا أن يغدو ثملا على الدوام في نهاية الأكل. ثملا ليس من النبيذ على الرغم من إفراطه في شربه، ولكن من الاكل. ذلك الاكل الذي لا تستطيع بنيته المنهكة ان تتمثله بمثل تلك الكمية. ومن سخرية القدر ـ وكم مرة فهمته! ـ فانه ما إن يصل الى غرفته حتى ينفجر من الجوع ثانية. مسكين تير يكان! آه كم كانت مألوفة لدي هذه الوجهة المضحكة من مصائبه. يمشي، المعدة فارغة، يمشي، المعدة مليئة، يمشي ليهضم الوجبة، يمشي لأن هذه هي التسيلة الوحيدة التي تسمح لك بها محفظة نقودك، مثل التجربة التي قام بها بلزاك عندما جاء الى باريس، يمشي، لكي يهرب من وساوسه، يمشي، لكي لا يبكي، يمشي، ضمن التوقع العابث واليائس للالتقاء بوجه لطيف، يمشي، يمشي، يمشي.. لكن لم التصدي لهذا الأمر! لنضعه تحت اسم «بارانويا دوارة». لم تكن مصائب تير يكان لتحصى حقا. كان مهموما في جميع الحالات، وعلى غرار أيوب خاليا كليا من أي ايمان بمآثره السابقة، كان يظهر قوة داخلية ملحوظة، ملحوظة لأنها دون شك كانت بلا أساس.

كان يبذل قصارى جهده ليحفظ ماء الوجه، ومن النادر أن ينهار، أمامي على الأقل، وعندما يفعل، عندما كانت الدموع تجري على خديه فقد كان الأمر يفوق قدرتي على التحمل، كنت أبقى صامتا عاجزا. كان التمزق الذي يقاسيه من صنف خاص، يتعلق بانسان غير قادر أن يفهم لم كان هو، هو بالخصوص من بين جميع الآخرين من يجد نفسه منتخبا للعقاب على هذا النحو. وبنظرة غير مباشرة كان يجعلني أفهم بأنه لم يتسبب قط بقصد أو بغير قصد، بالأقل من الأخطاء في حق أقرانه، وأنه على العكس كان يبحث عن مساعدة الناس. كان مقتنعا ـ ولا أشك بأنه مخلص فيما يقول ـ بأنه لم يترب على الشر، وأنه لا يتمنى شرا لأحد. وهذا صحيح فإنني، وعلي ان أعترف بذلك، لم اسمع منه كلمة سوء واحدة عن ذلك الرجل المسؤول عن انحطاطه في العالم. لقد عزى تلك الحادثة المزعجة كليا الى ثقته المفرطة، كما لو ان انخداعه كان خطأه هو ولا علاقة للآخر به.

لقد انتهيت مستخدما بعض دهائي ـ وكنت مسلحا بذلك اكثر منه قليلا في ظل الممارسة العملية ـ إلى أن أتخيل فكرة غريبة، هي أن أقترح على أصدقائي أن يقرأ تير يكان لهم طوالعهم مقابل مبالغ متواضعة. واعتقد ان الامر كان يتعلق بمئة فرنك وربما بخمسين منها

Twitter: @ketab_n

فقط. في تلك الفترة كان يمكن أن ندفع من اثنتي عشرة الى ثلاثة عشر فرنكا لوجبة دسمة لائقة. أما إيجار غرفة تير يكان فأعتقد بأنه لم يتجاوز الثلاثمئة فرنك على الاكثر شهرياً.

كل شيء كان يمضي على ما يرام وصولا الى يوم كانت فيه قائمة أسماء معار في وأصدقائي هزيلة. عندئذ، ولكي لا أترك المسكين فقد وجدت لزاما علي أن أخترع الناس الذي يقرأ طوالعهم. فكنت أدفع اليه بأسماء وجنسيات وتواريخ وساعات ميلاد تلك الشخصيات المتخيلة. ودفعت إضافة لذلك كله أجرة قراءة الطوالع من جيبي.

ووفقا لتير يكان الذي لم يكن ليشك لحظة بالسياق الذي تطورت فيه الاحداث فإن اولئك الاشخاص الوهميين كانوا يحملون طباعا ذات تنوع مذهل. بين وقت وآخر عندما كانت خطوط الطالع غير مناسبة كان يجهر برغبته في التقاء هؤلاء الناس، أو يصر على ان اعطيه التفصيلات الحميمة لهم وكنت ازوده بها بالطبع بمرح لا مبال لرجل واثق بما يقوم به. وعندما كان الأمر يتعلق بالكشف عن خفايا الشخصية المعنية فقد كان من الجلي أن لدى تير يكان القدرة ذاتها على التنبؤ. حاسته السادسة كما كان يسميها، كانت جد مفيدة لكي يشرح خط الطالع، لم يكن ليحتاج لا الى البطاقة ولا التواريخ ولا الامكنة. لا شيء أبدا. لن أنسى ابداً الوليمة التي اقامتها المجموعة التي كانت تمول مجلة «إرادات» والتي كان يديرها جورج بيلورسن. كنا اوجين جولاس وأنا الأمير يكيين الوحيدين من بين الجميع وكان الآخرون فرنسيين كلهم. في ذلك المساء كنا هناك. كان الطعام فخما. النبيذ والمشروبات الأخرى كانت تقدم بإسراف. كان تير يكان يجلس قبالتي، والى يمينه يجلس جولاس، وأتذكر جيدا ان رايمون كينو كان يجلس في الجهة الأخرى. كان الكل في مزاج رائق، الى أن بدأت النقاشات تتخذ طابعا من الحدة قليلاً.

بوجود تير يكان في الوسط كان مقدرا ان يصل الحوار عاجلاً ام آجلاً الى فن التنجيم. كان تير يكان هادئا مثل معمداني، مغلقا براطمه بأدب، مستعدا لاستقبال المزحات والملاحظات الجنسية التي يتوقعها يقينا كلها. ثم ابتدأ الأمر فجأة. سؤال بريء مطروح من قبل شخص دون دراية، كان كافيا وحده لكي يجتاح الجوجنون عذب. أمطرت الاسئلة من كل صوب. وبدا الأمر كما لو جرى اكتشاف شخص متعصب، أو جرى اكتشاف الأسوأ: المختل. جولاس الذي كان لحظتئذ مندفعا بقوة، وعدوانيا لذلك اكثر من المعتاد اصر ان يقدم

Twitter: @ketab_n

تير يكان البراهين على ما يدعي، وتحداه بان يعرف الأبراج التي ينتمي اليها الحاضرون. من المؤكد ان تير يكان قد صنف اثناء المناقشات هذا وذاك بشكل عقلي، كما لم تكن افكاره الجاهزة لتمنعه من القيام بذلك ايضا. عندما كان يتحدث مع احدهم فقد كانت المسألة نوعا من الروتين اليومي لديه في مراقبة تصنعات محاوره وإشاراته وعاداته الغريبة وهوسه وما الى ذلك. كان حاد الذهن الى حد ما، ولديه من الخبرة ما يمكنه من أن يميز ويصنف النمط الاكثر تباينا من بين الجالسين الى الطاولة. أشار مخاطبا الواحد تلو الآخر من مفحوصيه محصيا: الأسد، الثور، الميزان، العقرب، الجدي.. الخ ملتفتا صوب جولاس في النهاية وهو يوضح له قدرته على ان يقول له سنة ويوم ولادته، وربما حتى الساعة. توقف بعض الوقت ورفع رأسه بخفة كما لو أنه يفحص هيئة سماء اليوم المعين، وأعطى التاريخ مضبوطا. قام بحركة استعراضية أخرى ثم أشار الى الساعة التقريبية. كان يستعرض خصاله وسط هذا الرهان. صم جولاس كليا وهو يستعيد انفاسه بينما استمر تير يكان بسرد بعض التفاصيل الأشد حميمية في حياة جولاس، بما فيها اصدقاء جولاس الاكثر قربا من غير المعروفين. قال له ما كان يحب وما لم يكن يحب، الامراض التي اصيب بها والتي يحتمل ان يصاب بها في المستقبل، مضيفا اليها تلك التفصيلات التي يستطيع قارىء الافكار وحده البوح بمثلها، واذا كانت ذاكرتي دقيقة فقد أشار اليه حتى بموضع وحمة ولادته. كانت ضربة التباهي الاخيرة هذه بالنسبة له بمثابة الورقة الرابحة التي يرميها عندما يشعر بأنه متهيء للأمر، كما لو كان يمهر بتوقيعه أسفل تنجيمه، وكان يوجد اخريات مثلها اكثر غرابة بالتأكيد. وفي كل مرة كان الاستعراض الذي يقدمه ناجحا وممتازا أياً كانت طبيعة مشهد (استحضار الارواح) الذي يشتغل عليه.

عندما يخطر بذهني هذا الموقف فإنني أرجع دوما متذكرا الغرفة التي كان يشغلها في أعلى الطوابق في فندقه. ولما لم يكن هنالك مصعد فقد كان من الطبيعي أن يتسلق مرغما على قدميه الطوابق الخمسة او الستة وصولا حد النجوم. وفي اللحظة التي يدخل فيها فإن العالم الخارجي كان يبدو وقد اختفى. للغرفة شكل شاذ، واسعة الى حد كبير حتى ليستطاع المشي بها طولا وعرضا، مؤثثة بالتمام بحطام استطاع إنقاذه من الغرق. وفور الدخول اليها فإن ما يصدم هو هذا الاحساس بالنظام الذي يحكمها. كل شيء في مكانه. تماما في مكانه. حتى أن وجود بضعة مليمترات من أقصى اليمين او من اقصى اليسار في وضع المقعد او في

Twitter: @ketab_n

وضع قطعة فنية او قاطعة ورق كان من شأنها تدمير التأثير العام للغرفة . . في عقل تير يكان على الاقل . كان ترتيب طاولة كتابته يفضح هذا الهوس بالتنظيم . ليس ثمة ما يدل على اقل اثـر لغبـار اوقذارة في أيـها مكـان . كل شيء كان طاهراً . كان الشيء ذاته يتجلى في شخصه هو، لم يكن ليظهـر أمـام الآخـرين دون بياضات نظيفة ومنشاة . الجاكيت والبنطلون مكويان (من المحتمل أنه كان يكويهما بنفسه) . الحذاء ملمع . ربطة العنق دقيقة الربط ومتجانسة مع لون القميص، ومثلما يلزم : قبعة ومعطف وحوامل مطاطية وأشياء أخرى مهيأة بدقة مفرطة في خزانة ثيابه . واحدة من الذكريات الاكثر تأصلا في روحه، و التي ظل يحتفظ بها منذ الحرب العـالميـة الاولى، حيث كان يؤدي الخـدمـة في الفرقة الاجنبية، كانت تتعلق بالوساخة التي توجب عليـه العيش فيهـا . روى لي، ليـوم كامل، كيف انتهى ان يتعرى تماما وكيف اغتسل من الرأس حتى القدمين بثلج ذائب في أحد الخنادق لأن واحدا من رفاقه كان قد تقيأ عليه . صار لدي انطباع بأنه كان يفضل ان يتلقى طلقة من ان يغتسل من محنة من ذلك القبيل .

ما يعلق في الـذهن ايضـا من تلك الفـترة حيث كان من اليأس بمكان، فقيرا وبائسا، هي الهيئـة الانيقـة المعتنى بها التي لا ينفصـل عنها البتة، كان يبدو صرافا يمر بمحنة اكثر من رجـل دونـها ايـة امكانية . لقد صنعت ملابسه، التي كانت كلها من طراز ممتاز ونوعية جيدة، لكي تستخدم عشر سنوات أخرى، بسبب العناية الفائقة التي كان يوليها اياها، كانت مشيته ايضا تليق بسيد حسن الملبس . من جهة أخرى، وعلى العكس مني، لم تطرأ له ابدا فكرة ان يبيع ملابسه، او ان يقللها ليتمكن من الحصول على القوت . كان بحاجة ماسة الى خزانة الملابس تلك . لقد توجب عليه ان يحافظ على مظهره اذا ما اراد ان يستمر بصيانة علاقاته . بما فيهـا علاقـاتـه المتنـاوبـة مع العـالم . كان يستخـدم ورقـا فاخـرا للرسائل، حتى للرسائل الاعتيـاديـة، ورقـا معطراً قليلاً . في طريقة كتابته ذاتها يمكن ملاحظة هذا الاهتمام بالمظهر، كانت رسائله مثلها مثل مخطوطاته ومثل خطوط طالعه تحمل سمة رسول ملكي، سمة رجل يقظ يزن كل كلمة من كلماته، . وعلى أتم الاستعداد لتكون حياته مرهونة لأفكاره .

سأبقى اتـذكـر ايضـا ولـوقت طويل قطعة الاثاث ذاتها في غرفة تير يكان : الخزانة . لقد كنت أترصد طيلة الامسية ـ وهي تستمر في العادة وقتاً طويلاً ـ اللحظة السانحة لكي أشيح بوجهي عنها، ولكي أدس، برشاقة، ورقة نقدية بفئة الخمسين أو المئة فرنك تحت تمثال صغير

Twitter: @ketab_n

منصوب هناك، كان علي كل مرة أن اعيد العملية نفسها، لانني كنت اتصور النتيجة التي سأقع فيها اذا ما دفعت اليه النقود مباشرة، او اذا ما ارسلتها اليه بالبريد، لدى انصرافي كان لدي الانطباع بانه يخرج دوما مندفعا صوب حانة الحي لكي يقدم لنفسه كرنبا مملحاً ومخللاً بتلك النقود أثناء انتظاري في محطة المترو القريبة.

كان ينبغي أيضا الانتباه وعدم التصريح بأية رغبة نحو أي شيء مهما يكن، خلاف ذلك، وعلى طريقة الاسبان، فإنه سيدس هذا الشيء براحتك قبل أن تقول (آه)، حتى لو تعلق الأمر بربطة عنقه أو بعصاه. وكان يمتلك من هاته مجموعة كاملة. هكذا صرت خلال سهو محض ملاكا لعصى من خشب الأسل، كان (مواش كسلنغ) قد أهداها له بدوره، وكان ينبغي في مرة اخرى ان استحضر كل قواي على الاقناع لثنيه عن إهدائي الزوج الوحيد الذي كان يملك من ازرار اردانه الذهبية. وما كنت أتردد ابدا من جهة ثانية ان اسأله لمَ كان يحمل أردانا منشاة وأزراراً للردن، وما كان يمكنه قطعا الإجابة بأنه لا يملك قميصا غيره. كان يحتفظ قريبا من الشباك حيث مكتبه المثلم الاطراف باثنين او ثلاثة من خطوط الحظ، مثبتا إياها بدبابيس، لأشخاص لم ينته من قراءة طوالعهم بعد. كان يمسكها بكلتا يديه على طريقة لاعبي الشطرنج الذين يضعون الى جانبهم على الدوام رقعة أخرى ذات قطع مأزومة. كان يظن انه يعطي المزيد من الوقت لتفسيراته لكي تنضج وتغدو اكثر اتضاحاً. كان خط حظه نفسه معلقا الى جانب الأخريات بطريقة مميزة، وكان يستغرق فيه ملياً، بفواصل زمنية متكررة، مثل بحار يستشير بوصلته من وقت لآخر. كان يرصد منهمكاً ما كان يسميه بـ (الفتحة). وفي احد الخطوط كان يشرح لي بأن الموت يصرح عن نفسه عندما تكون المخارج كلها مسدودة ولا يكون استبيان مجيئه مقدما سهلا، لكنه يصير واضحا مثل الكريستال حال وقوع الموت، لكي تظهر الدراما جلية في الخط نفسه.

وما أتذكره بدقة اكبر تلك الاشارات الموضوعة بقلم رصاص أزرق وأحمر وهي تشير الى تقدم وتراجع منطقة الحظ. كان الامر يشبه حركة البندول. بندول يتأرجح ببطء لا يستطيع غير رجل ذي صبر لا نهائي أن ينتفع من حركة انتقاله. واذا ما تذبذب من هناك قليلا جدا فإنه كان يهلل، أما اذا ما تذبذب من هنا قليلاً جداً فقد كان يبدو وقد اثقل بأفكار سوداء. أما ماذا كان ينتظر من تلك الفتحة، فهذا ما لا ازال جاهلاً به حتى الآن، لأنني لم احصل ابدا

Twitter: @ketab_n

على انطباع يفيد بأن تير يكان كان يقوم بأدنى جهد لتحسين حاله. وربما لم يكن ينتظر شيئا سوى فترة زمينة بسيطة. وبسبب مزاجه، فما كان يأمل باكثر من فترة هدوء فحسب. لان لا شيء مما يشابه الوضع الجيد كان مناسبا له. كانت رغبته الوحيدة والفريدة هي في أن يستطيع مواصلة ابحاثه، هكذا تدريجيا كان ثمة سبب لأن يكون ما هو عليه اللحظة. لم يكن رجل افعال، ولا كاتبا لامعا يأمل بالانعتاق يوما بفضل قلمه. لم يكن مرنا بما فيه الكفاية ولا متساهلا بما فيه الكفاية لكي يتسول. كان يكتفي ان يكون تير يكان بشخصية مكشوفة بوضوح شديد في خطوط الطالع التي صنعها هو بنفسه. شخص (زحل) له سيء من بين أشياء أخرى. عراف حزين كان يحاول في لحظات يأسه ان يسرق اشعاعا باهتا من نجمته نير العقرب. كان باختصار ضحية محكومة بأن تحمل وجوداً مؤلماً ومحدداً.

ـ لدينا نحن الاثنين ضربة حظنا. كنت اقول له من وقت لآخر: لا يمكن أن نمطر دوماً! انت تعرف القول المأثور «سعادة البعض تجلب التعاسة للآخرين».

واذا ما كان لديه مزاج للاصغاء فقد كنت ادفع بالنصائح الى معاقله: ـ لمَ لا تترك جانبا نجومك بعض الوقت؟ لمَ لا تأخذ إجازة صغيرة كما لو أن الحظ الطيب معك؟ من يعرف ما الذي سيحدث؟ إذهب وقابل شخصا في الشارع، شخصا مجهولا رائعا سيفتح لك ابوابه التي تعتقد انها مغلقة. الطيبة موجودة ايضا، اتعرف ان هذا يمكن ان يحدث لك اذا ما كنت بحالة روحية ملائمة، واذا ما تخليت عن سير الاحداث الطبيعي؟ خصوصا اذا ما نسيت ما هو مكتوب في السماء؟».

وللاجابة على هذا النوع من الأسئلة فقد القى علي نظرة غريبة، ثقيلة، وذات مغزى. كانت لديه في بعض الاحيان حتى تلك الابتسامة العذبة الخائبة التي يكشر الأهل الحليمون بها للطفل الذي يطرح مشكلة عصية. لم يكن يعجل بالاجابة المستعد دوما للادلاء بمثلها والتي كان يشعر بتعب من إعطائها وقد وجد نفسه محشورا في هذه الزاوية. أثناء لحظة الصمت التي تلي كان يعطي انطباعا بأنه يمتحن في البدء يقينه وبأنه يستعرض (وللمرة الألف) ما سبق ان قاله وفكر به حول الموضوع وبانه يعطي لنفسه ترف الشك، متوسعا، متعمقا في المشكلة وهو يعطيها البعد الذي لم اكن لا أنا ولا اي فرد آخر بقادرين على تخيله، كل ذلك قبل ان يقوم بصياغة بطيئة، متزنة، باردة ومنطقية للجمل التمهيدية من دفاعه:

Twitter: @ketab_n

ـ يا عزيـزي . كنت اصغي ثانيـة . يجب علينا ان نفهم ما نسمعه صدفة . الكون منظم حسب قوانـين . وهـذه القـوانين تؤثر بمصائر البشر كما ببزوغ وحركة الكواكب . ثم استلقى على مقعـده المـريـح الـرجـراج ، مستـديرا بخفة تسمح له ان يتأمل خطوطه صارخا : «أنظر هناك . .» وهو يعبر عبر تلك الخطوط عن المأزق المنظم الخاص الذي كان يجد نفسه مثبتا فيه تلك اللحظة . ثم اخرج خطوط حظي من الملف الذي كان يمسكه بين يديه وطلب مني ان اتفحصه معه :

ـ ها أنت هنا . هنا ! ـ وأشار باصبعه تجاهي ـ انت وتلك الملاك أناييس ، دونكما الاثنين سأكون فظيعا !

ـ لكن لمَ لا نرَ الاشياء بطريقة ايجابية ! شرحت له : إذا كنا هنا ، أناييس وأنا ، واذا كنا كما تصفنا فلمَ لا تضع كل ايمانك وثقتك بنا؟ لمَ لا تساعدنا لنستطيع أن نخلصك؟ ان ما يمكن ان يقوم به انسان لآخر لا حدود له ، ألا ترى هذا ايضا؟

وبـالطبـع فقـد أجاب على هذه التساؤلات أيضا . كانت الصعوبة معه انه يجيب على أي أمـر . لم يكن ينفي قوة الايـمان ولكنـه كان ببساطة ، رجل ينكره الايمان . غياب إيمانه كان حاضرا هناك : في خطوطه . ما العمل إذن؟ . ما كان شديد الحذر من قوله هو انه عندما اختار طريق المعرفة فإنه قد قص اجنحته بيديه .

بعد سنوات اخرى سمح لي ان اطلع على طبيعة واصل ذلك الخصاء الذي كان يلمح اليه وهو يتحدث عن فقدانه لأي ايمان . خصاء نشأ معه منذ طفولته ، في إهمال عائلته له ، في الفظـاظـة المنحـرفـة لأسـاتـذة مدرسته ، لدى واحد من بينهم على وجه الخصوص كان يذله ويعـذبـه بطـريقـة لا انسـانيـة ، إنها حكاية محزنة وبشعة تلك التي تفسر فقدانه أيما إحساس أخلاقي ، وخسته الروحية .

قبل الحرب ، وكالعادة ، كان ثمة حمى في الهواء . النهاية تقترب . كل شيء كان مشوها ومضخـما ويسـير بإيقـاع متسـارع ، الأغنيـاء نشطوا مثل النحل والدود وهم يجمعون نقودهم وممتلكـاتهم ومقـراتهم ويخوتهم وألقابهم المزوقة وأعمالهم المنجمية وابتهاجاتهم وكنوزهم الفنية . كان لدي في ذلـك الـوقت صديق ممتـاز ، كان يقفز من طائرة الى طائرة ومن قارة الى قارة وهو

Twitter: @ketab_n

يزود بالحاجيات هؤلاء الزبائن الاثرياء المليئين بالرعب، الذين كانوا يريدون ان يدفنوا خيراتهم بصخب في مخابىء. كانت القصص التي رواها لي خرافية، وكانت بالرغم من ذلك شائعة الى درجة كبيرة وخسيسة (هل يُستطاع تخيل جيش من أصحاب الملايين؟). كانت خرافية ايضا تلك القصص التي رواها لي صديق آخر وهو مهندس كيمياوي، كان يأتي للعشاء من وقت لآخر بين رحلتين الى الصين، الى منشوريا، الى منغوليا، الى التبت، الى بلاد فارس، الى أفغانستان، الى كل مكان يوجد فيه أمل بصخب مشاجرة، كان يعود بالحكايات ذاتها كل مرة، بالمكائد ذاتها والبلاجات وقناني النبيذ والخيانات والمؤامرات والمشاريع من الصنف الاكثر شيطانية. لم تكن قد مرت سوى سنة واحدة على الحرب تقريبا، لكن المؤشرات كانت تدل بلا ريب ليس على الحرب العالمية الثانية فحسب انما ايضا على الحروب والثورات التي ستلي.

البوهيميون أنفسهم طردوا من معاقلهم. لحظتئذ كان عدد كبير من المثقفين المفككين مسلوبي الحقوق المتدافعين مثل البيادق في خدمة اسياد مجهولين قد انذهلوا تماما. لم يكن يمر يوم دون أن يزورني واحد من تلك الشخصيات الأستثنائية وليس على الشفاه سوى سؤال وحيد: متى؟ وفي انتظار حلول اليوم المأمول كان كل واحد منهم يستخدم اقصى طاقاته للابتهاج بمن فيهم نحن، نحن الذين كنا نتشبث ببهجتنا حتى الصفارة الاخيرة للمركب الاخير.

ولم يكن تير يكان يشارك في جو البهجة الجماعي واللعب الصاخب ذاك، فهو ليس صبيا لكي يساهم بأمسية مزاح محفوفة بمخاطر ان تنقلب الى مشاجرة حقيقية، او الى عربدة سكر، او تنتهي بمباغتات الشرطة. فكرة ان ادعوه الى مثل هذا الجو لم تخطر لي في الحقيقة ابدا. وعندما كنت ادعوه الى العشاء عرضا فقد كنت اختار بعناية فائقة المؤاكلين الاثنين او الثلاثة الآخرين انفسهم تقريبا على الدوام، وهم زملاء صغار في فن التنجيم. في احد الايام جاءني دون سابق انذار ـ وهي مخالفة غير متوقعة لبروتكوله ـ بدا متهللا وشرع يوضح لي بانه سيقوم بالتجول طيلة ما بعد الظهيرة على الساحل، ثم اخرج من معطفه علبة وقدمها الي قائلا بنبرة فيها الكثير من العاطفة: «انها من اجلك!». من هذه النبرة فهمت بأنه يقدم لي هدية انا وحدي من يعرف قيمتها. الكتاب، لأن الهدية كانت كتابا، كان «سيرافيتا» لبلزاك.

Twitter: @ketab_n

اظن بأن مغامرتي معه كانت ستنتهي بطريقة اخرى لولا هذا الـ (سيرافيتا). وسنرى قريبا أي ثمن توجب علي ان ادفع لقاء هذه الهدية النفيسة. وقبل الذهاب بعيدا، علي ان اشير ان التهيج والقلق فريد النوع في تلك الايام قد اثر في الجميع، وبالكتاب على الخصوص من بين الجميع دون ادنى شك. كان ثمة تسارع في نبضات الروح بالنسبة لي على كل حال. لقد كان الناس المرميون على طول شوارعنا، والحوادث المتزايدة يوما بعد آخر التي بدت للبعض ترهات قليلة الشأن تأخذ في روحي معنى شديد الخصوصية. كان هناك نوع من التقييد الذي لم يكن منشطا ومحرضا فحسب انما كان يدفع للهلوسة ايضا. جولة بسيطة على الأقدام في القرى القريبة من باريس، مونتروج وجونتلي وكرملان ـ بيسيتر وايفري كانت كافية لتعيد لي توازني طيلة اليوم. كنت احس بنشوة خاصة من الحيرة والاغتراب منذ الصباح الباكر (كانت جولات ما قبل الفطور هذه بمثابة نظام صحي لي، بروح حرة وفارغة كنت استعد جسديا وذهنيا للفصول الطويلة التي علي انجازها على الآلة الكاتبة) كنت أدلف متخذا طريق تومب ـ إسوار نحو الشوارع الخلفية وأتوغل في الضيعات تاركا لاقدامي ان تقودني كما تشاء. كنت اتجه لدى العودة الى ساحة رونغني دون توقف وكانت لسبب من الاسباب تدفعني للتفكير بمقاطع من فيلم لويس بونويل (العصر الذهبي). كانت الأسماء الغريبة لتلك الشوارع وطقوس غرابتها والتجمع المميز لحشد من الأولاد والمتوحشين المنبثقين من عالم آخر هي التي تجعل هذا الحي بالنسبة لي فتانا وغير واقعي. كنت اجلس في الغالب على مصطبة، وأغلق عيني لدقائق تاركا روحي تهيم دون هدى، ثم افتحها فجأة وأنظر للمشهد بعين السائرين في نومهم الفارغة. ماعز الضواحي، الارصفة العائمة، كؤوس الجعة، احزمة النجاة، بغال، عبارات، جراد، كلها تتدفق امامي مع حشد آخر من دواجن دون رؤوس، قرون أيائل مزينة بشرائط ملونة، مكائن خياطة صدئة، ايقونات وأشياء اخرى لا تصدق. لم يكن تجمعا ولا حيا، ولكنه مرشد خاص مصنوع بالضبط لمتعتي الجمالية، مخلوق لكي ينعقد عاطفيا معي، عن عمد. كنت لدى صعودي من جديد شارع فونتين ـ مولار اناضل بضراوة لكي احتفظ بهذا الانخطاف الروحي. كنت اناضل لامسك داخليا الى ما بعد الظهر بثلاث صور عميقة، اذا ما استطعت إعادة تشكيلها سوية فإنها ستسمح لي بتعميق واحدة من النقاط المهمة في عملي والتي كان مستحيلا تعميقها في يوم تال. كان شارع بريا ـ سافران يتلوى مثل حية امام

Twitter: @ketab_n

الساحة ويجعل اعمال اليفاس ليفي متوازنة. شارع بوت اوكاييه الاكثر بعدا كان يذكر بمحطات الصليب. شارع فيليسان روب الواقع في زاوية اخرى كان يرن بجميع اجراسه ويطلق زوبعة من خفقان الحمائم. اذا كنت في حالة سكر ـ وهذا يحدث بشكل متقطع ـ فان هذه التداعيات والانثيالات والمعاني كانت تأخذ في الغالب حياة وتأخذ الوانا فخمة، وفي يوم مثل هذا كان امراً عاديا ان ابدو وكأنني سأستلم لدى وصول اول بريد نسختين اوثلاثا من (إي ـ شنغ)، البوما لسكريابين، مجلدا صغيرا مكرسا لحياة جيمس انسور، معالجة صغيرة حول بيكو ديلا ميراندولا.

على مقربة من مكتبي ثمة اثار لسكر شديد حديث العهد على هيئة قناني نبيذ فارغة مرتبة بعناية: نوي ـ سان جورج. جيفري شامبرتان. كلو ـ فوجو. فون ـ رومانيه. مورسو. ترامينير. شاتو أو ـ بريون. شامبول موزيني. مونتراشيه. بون. بوجوليه. أنجو. والنبيذ المفضل لبلزاك فوفريه. هذه القناني ـ الصديقات العجائز المفرغة من قطراتها الأخيرة، ما زال بعضها يحتفظ بشميم خفيف حتى اللحظة.

فطور في منزلي، قهوة قوية مع حليب مغلي. فطيرتين اوثلاث فطائر لذيذة حارة مع زبدة غير مملحة وظلال من المربى. أثناء الاكل مقطوعة موسيقية من سيجوفيا، امبراطور لا يمكن ان يحلم بأحسن من هذا! تجشأت ونظفت أسناني، شعرت بتنمل في اصابعي. القيت نظرة حولي كما لو لارى اذا كان كل شيء في مكانه الصحيح. اغلقت الباب بالمفتاح وتهيأت بصرامة خلف طابعتي وانا استعد للانطلاق ملتهب الرأس. لكن اي درج سافتح اولا من مقصورة روحي الصينية؟ كل درج يتضمن حصيلته وطقوسه وأشكاله. بعضها يعود الى خمسة آلاف سنة قبل الميلاد. بعضها الآخر اكثر بعدا.

علي في البدء أن انفض الغبار. غبار باريس الناعم جدا، النافذ وغير المرئي جدا، علي ان اترك الحرية لنفسي وهي تنغمر بأقصى الجذور. وليامسبورغ، كانارزي، كرينبوان، هوبوكن، قناة كاوانوس. ايرييه بازان، الى اصدقاء لهوي الذين يتعفنون في قبورهم في تلك الاماكن الساحرة المسماة كلاندال، كلين ايزلاند، سايبفيل، باتشوغ، الى المتنزهات والجزر والخلجان المنقولة الآن الى محرقة الزبالة. علي أن افكر بالفرنسية واكتب بالانكليزية. ان ابقى راسخا واقول اشياء مجنونة، ان العب دور الحكيم واستمر بجنوني وغبائي. علي ان

Twitter: @ketab_n

اوازن ما لم يكن متوازنا، دون الوقوع عن الحبل المشدود. علي ان استدعي الى الصالة دوار ذلك الرمز الشعري المسمى جسر بروكلين، محتفظا بطعم واريج ساحة رونجيز التي ينبغي ان تكـون في هذه اللحظـة حبلى بتـدفق العودة الكبيرة في هذه اللحظة تماما حيث يوجد الكثير الكثـير ليعمـل ويشـاهـد ويشرب ويهضم، عندما بدأت الكتب، مثل بشير من عالم قصي، تتـوالى: (مـذكـرات نيغينسكي) (الـزوج الابـدي) (روح زن) (صوت الصمت) (الجماعة المطلقـة) (كتـاب المـوت التبتي) (كـاهن الغـال) (حيـاة ميلا ريبا) (رقصة الحرب) (تأملات متصوف صيني)...

عندما سأمتلك منزلا بغرف كبيرة وبحيطان جرداء، لدي النية بأن اقيم لوحة ضخمة او رسما توضيحيا ليحكي افضل من ايا كتاب تاريخ اصدقائي، واخر لير وي تاريخ الكتب في حياتي. كل تاريخ على حائط. والحائط يقابل الآخر ويرفده. لن يأمل اي انسان مهما كان امله ان يعيش طويـلا بان يقـوم بالكلمات وحـدهـا باستعـادة احـداث حياته وتجاربه المتعذرة السبر. لن يكون هذا ممكنا الا من خلال وسائط من الرموز، من الرسوم البيانية على طريقة هذه النجوم التي تكتب اسرارها العالية.

لماذا اتكلم بهذه الطـريقـة؟. خلال تلك الفـترة ـ حيث الكثير ليعمل ويشاهد ويتذوق فان الماضي والمستقبل كانا قد اجمعا بدقة وتحديد على تفجير، ليس الكتب والاصدقاء فقط، وانـما الخلق والمشـاريـع والأحـلام والحـوادث التاريخية والأنصاب التذكارية والشوارع وأسماء الامـاكن والنـزهـات واللقـاءات والنقاشات واحلام اليقظة ونصف الافكار، تفجيرها بزوايا وهاويات، بتموجات وظلال، لكي تتكشف لي عن مادة واحدة متجانسة، وعن دلالاتها وجواهرها.

لقـد كانت تكفيني لحظـة صغـيرة من التفكـير بأصـدقـائي لكي اتـذكر السرية والفوج ذاتهـا، كانـوا يجيئـون دون أدنى جهـد مني، يصطفون حسب التأثير والعظمة والاستمرارية والقرب والثقل والكثافة وغير ذلك. وعندما يأخذون اماكنهم كان يبدو وكأنني انا نفسي كنت اتحرك عبر الاثير باتزان وبايقاع ملاك شارد الذهن ملتقيا بهم حيث كل واحد منهم في دورته في النقطـة الفلكيـة المضبـوطـة، بالضبـط في الـوقت الذي حدده القدر، السيء او الحسن. وكنت انسجم وايـاهم. اي خليـط من الـرؤى كانـوا يظهرون لي! كان البعض منهم مغلفين

Twitter: @ketab_n

بالضباب. بعضهم حادين مثل حراس. بعضهم صلبين مثل اشباح جبل جليدي. بعضهم ذاوين مثل زهور خريفية. اوراكضين نحو الموت. بعضهم يقودون مراكب بعجلات من المطاط. بعضهم يترنحون بصعوبة في المتاهة دون قرار. آخرون يتزلجون على رؤوس زملائهم، بدوران مخدر. آخرون يرفعون اثقالا تسحقهم. آخرون يلتصقون بالكتب التي يتطفلون عليها. آخرون يحاولون الطيران رغم السلاسل والاثقال التي تشدهم، ولكنهم كانوا واضحين للغاية، يحملون اسماءاً، ومرتبين حسب الحاجة والعمق والذكاء والهالة وطعم وايقاع النبض. بعضهم كانوا معلقين مثل كواكب مدهشة براقة، اخرون كانوا يتجولون بشكل خفي باقين دوما على مقربة لسماع الاصوات مثل كواكب للطالع الحسن بشكل ما. آخرون يمكثون بعيدين دون تكبر وكأنهم مستعدون للمجيء مثل بعض الكتاب (نوفاليس على سبيل المثال)، حيث أسماؤهم وحدها مثقلة بالوعود الى حد كبير، الى درجة اننا نسمح لأنفسنا بتأجيل قراءتهم الى يوم مثالي لن يصل أبداً.

وتير يكان؟ اليس له مكان في هذه الدوامة المتلألئة؟ اشك بهذا. فلقد كان ببساطة جزءا من الديكور فحسب، كان ظاهرة خاصة اخرى في ذلك الوقت.

ارى الآن كيف كان يبدو لي: مترب صا منذ الغبش. بارد الطبع. رمادياً، رابط الجأش. العين ذات بريق. وعلى الشفاة تكاد تنفجر تلك الـ (هاه)[1] المعدنية. هذه الـ (هاه؟) التي تكاد ان تجيبه هو نفسه انني اعرف ذلك! اسمع الان كل ذلك! لقد نسيته منذ زمن بعيد «هاه.. ماذا تقول؟». التيه. ظبي الجبل ذو القرنين الذهبيين. الكرال. العنقريط، الكيرمس. عالم المجمع. الترانسلوناسي. العصاب النفسي التكاملي. في ضخامة حصاة ملساء ثمة جرادة خضراء وحيدة. استمر: «العجلة تدور. سيجيء زمن..» ثم ينحني على خطوط كتابته السنسكريتية وهو يقرأ بمساعدة عداد جيجير* فاكا غطاء قلمه الذهبي ليكتب بحليب ارجواني: برفير، بروكلوس، بلوتان، سان فالنتين، جوليان لابوستا، هرمس تراسمغيست، ابولونيوس دوتيان، كلود دوسان مارتان، في جيب صدريته الصغير كان هنالك دوما قارورة تحتوي صبرا وبخورا وقطرات من الفشاغ البري. رائحة القداسة!

(١) هاه: محاولة لترجمة (نعم) الفرنسية (وي) التي تلفظ في سويسرا بطريقة خاصة ممدودة (ن) بفتحة قوية. (م).

* عداد جيجر: مقياس للقوة الذرية.

Twitter: @ketab_n

بالاصبع الصغير ثمة خاتم من اليشب موسوم عليه (ين ـ يانك)[1]. يسحب باحتراس ساعة ثقيلة من النحاس ليعبئها ويضعها على الارضية. انها التاسعة والنصف. الساعة الفلكية. القمر في قرن الرعب. والخسوف المرقش يغطي فوهات المجرة!.

«هـاه؟» يهتف كما يلقمكم حجـراً! انـا لا اقول شيئا عكس شيء. انا ارصد، احلل، اعـد، اقطـر. الحكمـة جيـدة ولكن المعرفة هي يقين. مع الجراح مبضعه، ومع الحفار رفشه وانحناءاته، ومع المحلل النفسي كتاب احلامه، ومع الاحمق بردعة الحمار، اما انا فلدي وجع في البطن من ذلك. الهواء قليل اكثر من اللازم. الاحجار ثقيلة للغاية على الهضم. (كالي ـ يوغا). نحتاج فقط ٩٧٦٥٨٥٤ سنة لكي نغادر حفرة الافعى. «الشجاعة يا صاحبي!.». لنلق نظرة الى الخلف: نحن في سنة ١٩٣٩ شهر حزيران. ليس مفيدا الانتظار لكي يرميني الالمان الى الخارج. سوف آخذ اجازة. بعد بضعة ساعات ساكون في الطريق الى اليونان.

كل ما تبقى لدي من وجودي في استوديو فيللا (سورا) هو بطاقة قراءة طالعي المخطوطة بالطباشير على الحائط المواجه للباب، والذي سيذهب الى هناك يمكنه ان يتأملها مليا، وانا مقتنع بأن من سيفعل هذا هو شاب من تلك الجماعة، بحاثة ربما. اوه! نعم: وعلى الحائط الآخر عاليا جدا بالقرب من السقف هذان السطران:

Jetzt musstedie Welt versinken

Jetzt mussteein Wunder geschehn

هذا واضح، اليس كذلك؟!.

وهـا هي الآن أمسيتي الاخـيرة مع صديقي الطيب تير يكان. وجبة متواضعة في أحد مطاعم شارع فونتين، في العطفة المقابلة للموضع الذي يسكن بابا السوريالية في وسط احيائه. تحدثنا عنه وكنا نقطع الخبز، وتحدثنا عن ناديا، وعن تدنيس المقدس. تير يكان حزين، وأنا ايضا، حزنا غامضا. لم اكن معه الا جزئيا. فلقد ارتحلت روحي الى روكامادور حيث امل ان اكون هناك غدا.

---

(١) ين ـ يانك هي مبدأ الثنائية في الفلسفة الصينية القديمة، الخير والشر، النور والظلام... الخ.

Twitter: @ketab_n

في صباح اليوم التالي كان تريكان مرة اخرى، ولكن في مواجهة بطاقة طالعي، مستغرقا في تذبذب حركة البندول. ليس هناك أدنى شك بأنه قد تحرك يسارا! تير يكان سينظر فيما اذا كان يستطيع نير العقرب او بيت الجوز اوبنات نعش ان تساعده (شوية)، فقط شوية. انه يحتاج الى ٩٧٦٥٨٥٤ سنة فقط لكي يتغير الطقس. فقط..

كانت تنث عندما لاح متر و فافان. قررت أن اشرب كاسا لوحدي. أليس الجدي من هواة العزلة؟ هاه! العزلة وسط الحشود. ليس ثمة من عزلة سماوية. هناك عزلة ارضية، هناك اماكن مهجورة فحسب.

اصبح الرذاذ مطرا خفيفا، مطرا رماديا، ذا لطافة متكلفة الحزن. مطر شخص مسكين. روحي تشرد. وبغتة اكون هناك مستغرقا بالاقحوان المضيء الذي كانت امي تعشق انباته في فنائنا المظلم المثير للكرب خلف بيتنا في شارع الاحزان الاولى. هناك كان ذاك الاقحوان المهروس الذي اراه الان مثل ازهرار اصطناعي، هناك في المواجهة تماما مع الليلك الذي اهدانا اياه صيفا ام. فوشس جامع الروث.

نعم. الجدي يعبد الوحدة. بطيء، مغلق ملحاح، يعيش اكثر من مشروع في آن واحد، متسلق على الدوام بحثا عن زهور البرسيه الالبية، الا اذا كان يفتش عن زهور (الخالدة). لا يعرف اما، يعرف امهات. يضحك ضحكا اصفر بعض الشيء، يجمع الاصدقاء بسهولة اكبر من جمعه لطوابع البريد، ولكنه بالرغم من ذلك ليس اجتماعيا، يفضل ان يقول اشياء محبوبة، ميتافيزيقي، تجريدي، منفتح، كهرومغناطيسي، يغطس الى الاعماق. يرنو الى النجوم والمذنبات والنيازك حيث لا يرى الآخرون سوى تراب الخلد والتآليل والبثور، يتغذى على نفسه اذا تعب من لعبة القرش آكل الانسان. مصاب ببارانويا. بارانويا دوارة. لكنه مثابر في محبته.. وفي حقده.. هاه!.

منذ اليوم الذي انفجرت فيه الحرب وحتى سنة ١٩٤٧ ليس من كلمة من طرف تير يكان، لم اعد افكر فيه. مات المؤمن. الا انه بعد وقت قصير من استقرارنا في بيتنا

Twitter: @ketab_n

الجديد في (بارنتغتون ريدج) وصلنا مظروف سميك، يحمل على ظهره كعنوان للمرسل اسم اميرة ايطالية وكان يتضمن رسالة من تير يكان وقد شاخت اشهرا ستة. كان قد طلب من الاميرة ان تؤدي له جميلا بتتبع عنواني وايصال الرسالة اذا ما توصلت الى العنوان صدفة. وكان العنوان الذي ارسله لي باعتباره عنوانه هو قرية قريبة من فيفي في سويسرا حيث، كما قال، كان يعيش هناك منذ نهاية الحرب. اجبته مباشرة لاعبر له عن مبلغ سروري بان اجده حيا، ولأسأله فيما اذا يحتاج الى شيء مني. وصل جوابه بسرعة قنبلة وقد رسم لي جميع التفصيلات في لوحة تتضمن الظروف التي يعيشها. وكما كان متوقعا فان هذه الظروف لم تتغير مطلقا. كان يعيش في غرفة دون تدفأة في بانسيون بائس، لا يملك حتى ما يمكنه من شراء سجائره، منهكا من الجوع كالعادة. باشرنا فورا بارسال الامدادات اليه والاشياء الواقعة بمرتبة الضرورة القصوى التي بدا بحاجة اليها، وكذلك بارسال النقود التي استطعنا تحويشها. وقد ارسلت اليه حتى قسائم البريد الدولية لكي لا يبذر النقود على الطوابع.

بعد وقت قصير من ذلك صار تغير الرسائل مثيرا، ففي كل رسالة جديدة كانت الحالة تبدو وقد تفاقمت سوءا. من المؤكد يقينا ان المبالغ الصغيرة التي كنا نرفده بها لم تكن تسمح له في بلد مثل سويسرا ان يذهب بالخير بعيدا. صاحبة العقار كانت تهدده دون توقف بالرمي خارج البناية. صحته صارت تسوء يوما بعد يوم. غرفته لم تكن محتملة. لم يكن يأكل ما فيه الكفاية. وكان مستحيلا ان يجد لنفسه عملا، والانكى من ذلك كله ففي سويسرا لا يمكن التسول ولا الاستجداء. ان نرسل اليه مبلغا اكثر اهمية كان خارج كل سؤال، ولكننا لم نكن اغنياء ابدا في تلك الآونة! ما العمل إذن؟!. لقد حاولت المرة تلو الاخرى ان اجد حلا دون جدوى. كانت الرسائل تواظب بأن تكون اكثر جمالا، مكتوبة على ورق انيق ومرسلة بالبريد الجوي، متسولة ومتضرعة بنبرة اكثر فاكثر يأسا. لا بد ان يتكيف مع حل جذري اويغدو بوضع فظيع. ولكنه كان قد رتب وضعه من جهة لكي لا يحيط اي التباس بهذا الصدد بوضوح مؤلم.

Twitter: @ketab_n

خطرت لي في النهاية فكرة عبقرية، مؤداها دعوة تير يكان للقدوم والعيش معنا ومقاسمتنا ما نملك واعتبار منزلنا منزلا له حتى اواخر ايامه. كانت الفكرة من السهولة بمكان بحيث انني اندهشت لعدم حضورها الا بهذا الوقت المتأخر. احتفظت بها لنفسي بضعة ايام قبل ان اطرحها على زوجتي، وكنت اعرف بانني لن استطيع الوصول لاقناعها على الفور بضرورة فكرة مثلها. لم يكن ينقص زوجتي الكرم في الحقيقة ولكنها كانت على دراية بأن تير يكان ليس من ذلك النمط من الاولاد الذين يحيلون الحياة الى بهجة دائمة. كان الامر مثلما تدعو رجلا مصابا بالكآبة للجثوم على صدرك بعض الشيء. «واين ستجد مأوى له؟» كان هذا هو تساؤ لها الاول عندما كنت اشرح لها، بشجاعة، تفصيلات الموضوع. لم يكن تحت تصرفنا سوى صالون كنا ننام به وغرفة جد صغيرة متاخمة له كانت تنام بها الصغرة (فال). «سأعطيه الاستوديو التابع لي» كنت اقول. ثم استدعينا الى اذهاننا كذلك «بناءاً» مستقلا منفصلا اكبر قليلا من غرفة نوم (فال)، والى الاعلى منه كان يوجد كراج متحول جزئيا الى مشغل للتصليحات، كان في نيتي ان اتخذه لعملي. بعدئذ جاء السؤ ال الكبير «وأين تجد النقود التي ستسفره بها؟».

ـ هذا.. هذا امر يحتاج الى تفكير. اجبت: الاساسي هو ان نرى فيما اذا كنت تقبلين بالمغامرة.

كان لديها روح مثخنة بالعتمة. ولكنها لم تلح علي بترك المشروع جانبا. دمدمت:

ـ انا متأكدة انك ستندم!.

وقد فاتها انني انا نفسي كنت اشعر بانني كنت مرغما، بلطافة متكلفة، ان اتجشم عناء مسؤولية كهذه من اجل انسان لم يكن حتى صديقي الحميم.

ـ لو كان بيرليه. قالت. كنت سأفهم، بيرليه يعني شيئا ما بالنسبة لك كما اوجين صديقك الروسي.. لكن تير يكان..! بمَ انت مدين له؟.

نفخت هذه الجملة النار في الرماد. بماذا كنت مدينا له؟ لا شيء وكل شيء في آن. من إذن اهداني (سيرافيتا)؟ كنت اتمسك بهذه الذريعة العاطفية واضعها نصب عيني، ثم اتخلى عن الفكرة في منتصف الطريق وانا اتحسب لا معقولية المحاولة. كيف، كيف، كل هذا من

Twitter: @ketab_n

اجل كتاب؟ على المرء ان يكون مجنونا ليقتنع بسبب من هذا القبيل. ولكنني حاولت عبثا ان اجد ذريعة اخرى. كنت اعاند نفسي لاجعل من (سيرافيتا) محامي، لماذا؟ كنت احاول ان احلل الاسباب العميقة وصولا الى اللحظة التي وجدت نفسي فيها خجلا من محاولة كهذه. ايه ماذا! هل هناك سبب لاحاكم نفسي؟ لاجد لها اسبابا بينما الرجل كان يموت جوعا ومرضا وكان دون فلس واحد؟ بل كان على شفا اليأس؟ اليست هذه مجتمعة كافية كأسباب؟.

من الأكيد بأن تير يكان كان مسكينا على الدوام. مسكينا بشكل يدعو للشفقة طيلة السنوات التي عرفته بها. لم تغير الحرب شيئا البتة، لم تقم سوى بمفاقمة يأسه. ما جدوى المحاججة كونه صديقي الحميم ام صديقا عابرا؟ عندما يغرق رجل تحت ابصارنا الا نمد له يد العون؟.

«ينبغي ان اقوم بما نويت عليه» صرخت. لم اكن اعرف كيف ساتدبر الامر ولكنني ساقوم به. ساكتب له هذا اليوم بالذات. واضفت بعد قليل لكي اترك لزوجتي بريقا من الأمل:

ـ من يعرف، ربما لن يعجبه الوضع هنا!.
ـ لا تقم إذن بذلك لهذا السبب وحده. قالت. ستراه وهو ينط بقدمين متراصتين.

كتبت اليه اشرح له الحالة، ورسمت له حتى خارطة البيت وسعة الغرف، مستدركا بأنها تخلو من التدفئة، مضيفا في النهاية باننا نسكن بعيدا عن ايما مدينة «ستجد، ربما، العيش ها هنا مملا ـ كنت اكتب ـ دون اي شخص سوانا للتحدث معه، دون مكتبة عامة، دون مقاه، اقرب سينما تبعد اكثر من ٦٥ كيلومترا عن البيت، سوى انه لن يتوجب عليك ان تتعب ذهنك بهموم الطعام والايجار..» وخلصت الى القول بان سيمتلك ان يكون هنا سيد نفسه مرة وسيستطيع اشغال وقته كله بما يعتقد انه حسن كما يستطيع ان يتبطر كسلا ما تبقى له من ايام اذا ما رغب بذلك. ومع عودة البريد وصل جوابه. كان ثملا من الفرح، وكان يسميني منقذه، ويتعامل معي كقديس.. الخ.. الخ.

كانت الايام التالية مكرسة بالتمام والكمال لتدبير المبالغ اللازمة. استلفت من الجميع، محولا على حسابه النقود القليلة التي كنت املك. كنت استلف على حقوق تأليفي المستقبلية

Twitter: @ketab_n

كمؤلف وانا اضع اللمسات الاخيرة لكي يقدر على ركوب الطائرة وصولا الى انكلترا، شادا الرحال منها على خطوط الملكة ماري - او الملكة اليزابيث لم اعد اذكر - ويصل بطائرة من نيويورك الى سان فرانسيسكو حيث سأستقبله بسيارة. قضيت الاسابيع القليلة اللاحقة بالاستدانة والتجول يمينا يسارا، كما بالانفاق الباذخ المترف لكي اشبع تير يكان، ولا اجدني لدى وصوله بصحبة عاجز اقوده بذراعي. ولم اصل الى تجاوز صعوبة وحيدة، كانت تتعلق بتنظيم ايجاره المتأخر. الى ان ارسلت رسالة الى صاحبة العقار ملتزما بتصفية المبالغ المتأخرة باسرع وقت ممكن معطيا كلمة شرف. وقبل بضعة لحظات من مغادرته كتب لي رسالة ودية يطمئنني فيها بصدد موضوع المرأة صاحبة العقار حيث كل شيء كان يجري على الشعرة بينهما، وحيث كان، ومن باب تعويض المتأخر، مضطرا لمضاجعتها دون كبير حماسة. شرح لي هذه النقطة بعبارات مزوقة متحايلا لدفعي ان افهم بانه كان يقوم بواجبه بالرغم من اشمئزازه.

عندما هبط في مطار سان فرانسيسكو كنا على ابواب احتفالات رأس السنة. سيارتي كانت معطلة، لذا فقد طلبت من صديقي ليليك (شاتس) الذهاب لاستقباله واستبقائه عنده في بيركلي ريثما اكون قادرا على الوصول لأخذه. ولم يكد تير يكان يهبط من الطائرة حتى يسمع نداءا موجها اليه: «السيد تير يكان: السيد تير يكان! انتباه!» كان يتوقف بغتة مصغيا، فاغر الفاه. صوت رائع كان يخاطبه عبر مكبر الصوت بلغة فرنسية متمكنة، طالبا منه التوجه الى مكتب الاستعلامات حيث يتوجب عليه الانتظار. كان مدهوشا. اي بلد! اية خدمة! كان يشعر بروح من التسيد. ليليك كان بانتظاره في مكتب الاستعلامات حيث كان قد اعطى تلكم المعلومات لمسؤول المطار، ليليك هو من تورط بعزيزي تير يكان، وهو من رافقه حتى مطلع الفجر، ساقيا اياه افضل انواع السكوتش الذي استطاع الحصول عليه، واصفا له، من اجل تتويج ذلك كله، مدينة «بيك سور» كجنة، وهو ما كانت عليه في الحقيقة. ولقد كان امرا في غاية الجودة ان يكون العزيز تير يكان مسرورا في النهاية عندما ذهب ليستلقي على السرير. وبهذا السياق فان الامور قد جرت بشكل افضل من ذهابي الشخصي لاستقباله.

بعد بضعة ايام اخرى كنت غير قادر على الذهاب الى سان فرانسيسكو، فاتصلت

Twitter: @ketab_n

احدهم وحذاءاً نسيجياً. اما قبعتي المكسيكية، وهي الاخيرة التي احتفظت بها، فقد كانت تحتوي على ثقوب للتهوية سببها العرق.

ـ لا حاجة بك الى الثياب هنا. اشرت اليه. تستطيع التجول عاريا اذا شئت

ـ أي حياة!. كان يهتف. انها مذهلة.

وفي وقت متأخر من الظهيرة كنت احلق ذقني عندما جاء ليسألني فيما اذا كان عندي بودرة.

ـ بالطبع. قلت له واعطيته العلبة التي كنت استخدمها. لكنه سألني:

ـ اليس عندك بالصدفة بودرة من ماركة (ياردلي)؟.

ـ كلا. لماذا؟.

كان يبتسم ابتسامة غريبة، نصف مضطربة نصف خبيثة.

ـ لا استطيع الا ان استخدم ماركة ياردلي، اذا ذهبت الى المدينة هل يمكنك ان تجلب لي واحدة؟.

كدت ان اخرج عن طوري هذه اللحظة لأجيبه:

«اغرب عني وعد الى مطهرك».

لم يكن للحادثة هذه ادنى اهمية، ولم يكن بوسعي ان اعيرها اهتماما معتبرا اياها كنزوة، كترهة، كمزاح كأي شيء ما عدا فأل عراف. غير انني فهمت في تلك اللحظة الاسباب التي امتلكتها زوجتي وفهمت بانني قد ارتكبت خطأ تذكاريا، وتصورت من اي مصاص دماء كانت انابيس تريد التخلص. كما شاهدت الولد المدلل، الرجل الذي لم يكن ابدا قادرا طيلة حياته على القيام بأبسط الاعمال الشريفة، المعوز، الفخور للغاية بالاستجداء بشكل مفضوح، القادر على استنزاف الاصدقاء. لقد فهمت كل ذلك بجلاء آنئذ وقدرت بأنه سينتهي بسوء العاقبة.

كنت اجد يوميا باطلاعه على وجهة جديدة من المنطقة، وقد وجد الحمامات المعدنية رائعة وافضل من مثيلاتها الاوروبيات بسبب بدائيتها وعذريتها، وبسبب كل انواع الخسة الاخرى. وكان قد اكتشف وحيدا منذ وقت جد قريب «الغابة العذراء» مفتونا باشجار الاسكوا والمادرون وبزهورها الوحشية وبغزارة سرخسها مدهوشا من جديد بما كان يطلق عليه

Twitter: @ketab_n

جهاتهم (المهملة) حيث لا توجد في اوروبا غابة واحدة تحتفظ بعفوية غاباتنا الامريكية هذه. . ولم يستطع قبول فكرة ترك الغابة هكذا دون ان يأتي احدهم لقطع الاغصان الميتة والسيقان المنهارة، كومة من حطب التدفئة، المبدد! وكثير من اخشاب البناء غير المستغلة، المضيعة عن الناس بينما الرجال والنساء في اوروبا يتراصون في حجرات بائسة صغيرة دون مدافىء.

ـ اي بلد! صرخ. كل هذه الوفرة وفي كل مكان، لن ندهش اذا ما كانت امريكا كريمة الى هذا الحد!.

كانت زوجتي تطهو بشكل جيد، وفي الحقيقة فانها كانت طاهية ماهرة. لقد كان في متناولنا الكثير من الطعام لنأكل والكثير من النبيذ الجيد الكافي لاستمراء الطعام، لكن تيريكان كان يجد النبيذ رائعا، بل ممتازا وافضل من النبيذ الاحمر العادي الذي كنا نشتريه في فرنسا. امر وحيد كان قد تعود عليه بطريقة سيئة: وجود الحساء في كل وجبة. بينما لم يرتح كثيرا لغياب التنوع المتعاقب من المأكولات كما هو الحال في فرنسا، كان يعاني من الحضور الدائم لوجبة الغداء الخفيفة الامريكية، لقد كان انتصاف الظهيرة بالنسبة اليه يعني (وجبة اساسية) كما يقال، بينما كانت كبرى وجباتنا هي وجبة العشاء. ومع ذلك فلا الجبن كان سيئا، ولا السلاطات اللذيذة كانت محسوبة عنده، على الرغم من انه كان يفضل زيت الفول على زيت الزيتون الذي نستخدمه بكثرة. كان بالاضافة لذلك كله يشاطرنا ميلنا الجامح لصدر الدجاجة، اما البفتيك فكان يأكله برعونة. وكنا بدورنا بين وقت وآخر نقدم له قليلا من الكونياك لكي لا يشعر بنأمة من الشعور بالغربة.

لكن ما كان يضايقه اكثر من اي شيء اخر هو تبغنا الامريكي، لقد كانت السجائر فظيعة إذا لم نستطع ان نعثر له على (كلواز) ازرق من سان فرانسيسكو او نيويورك. وكنت يقينا، يقينا موافقا على تبغه المفضل ولكنه كان باهظ الثمن. نصحته بتدخين «بتوين ذي اكت». وكنت خلال ذلك ودون ان اخبره قد توسلت الى اصدقائي في المدن الكبرى بالسعي للحصول على سجائر فرنسية. كان يدخن (السيجار) الصغير عند اللزوم. كان هذا السيجار يستدعي لذهنه اشياء لم يعد يحبها. وقد جلبت له يوما لدى ذهابي الى المدينة

Twitter: @ketab_n

علبة من تلك السجائر الايطالية الطويلة، الحادة جدا. اي على مزاجه بالضبط، على الحبة تماما! وقلت في نفسي «الحمد لله اخيرا».

مشكلة واحـدة بقيت دون حل: مشكلة اوراق الكتـابـة. كان ينبغي كما كان يلح ان يكتب على اوراق من حجم معـين، واراني عينـة منهـا كان قد جلبهـا معـه من اوروبـا لكي آخذها معي وأرى فيما اذا كان يوجد شبيه لها. وكان ذلك مستحيلا لسوء الحظ. كان قياسها غريبـا ولا يوجـد عليـه اي طلب بدون شك. كان يجد الامـر غير قابـل للتصـديق ولم يكن ليقنعـه. امـريكـا التي تصنع كل شيء بهذه الوفرة كيف يمكنه ان يتصور عدم امكانية العثور فيهـا على ورق رسـائـل اعتيادي؟. اغتاظ، وامسك اخيرا بالعينة بيده وشرع يصرخ ضاربا باصابعه على الطاولة:

ـ في كل مكـان باوروبـا يوجـد ورق مثـل هذا، بالضبـط من هذا القياس، وفي امريكا حيث يوجـد كل شيء لا نستطيـع ان نجـده؛ هذا مقـرف!» وبصـراحـة فان هذه الاوراق الحقيرة بدأت تزعجني. اي نوع من الكتابة اذن يتطلب نوعا من الورق بهذا القياس تماما؟. لقـد تدبـرت له بودرة يردلي وكلواز ازرق، ماء الكـولـونيـا، الحجارة المسحوقة المعطرة بشكل خفيف لتنظيف اسنانه وها هو الآن راغب بتكسير قدمي من اجل اوراقه الحقيرة.

ـ تعـال من فضلك لحظـة الى الخـارج. طلبت منـه بصوت هادىء، عذب ومهدىء. انظر الى هناك، انظر الى المحيط، انظر الى السماء.

وحملته على النظر الى شجيرات مزهرة. كان ثمة عصفور خارت قواه فحط على شجرة الورد قبالتنا مباشرة.

ـ انظر الى هذا..

وتوقفت لاترك له الوقت الكافي للمشاهدة. ثم قلت بذات النبرة:

ـ عندما يمتلك المرء هذا الا يستطيع الكتابة بشكل حسن ايضا على ورق المراحيض اذا استدعت الحاجة؟.

ـ يا صديقي. ابتدأ. اتمنى ان لا تجدني كثير الطلبات.

Twitter: @ketab_n

- بلى . قلت .

- اعذرني ، انني اعتذر من اعماقي ، لن يستطاع رد جميلك . لكل ما قمت به .

- عزيزي تير يكان لا اسألك شكرا ، اطالب فحسب بقليل من الرصانة (وكنت اريد القول «احساس حصان» ولكنني لم اجد المعادل الفرنسي للعبارة) . دونما ورق على الاطلاق يمكن ان تكون سعيدا ايضا . انت الآن رجل حر ، هل تدرك معنى ذلك؟ . . ايها الرب المقدس . . انت محظوظ اكثر مني ! اسمع ينبغي ان لا تفسد كل هذا . . - وبحركة غامضة من يدي ضممت السماء والمحيط والعصافير في الهواء والتلال الخضر - لا ينبغي افساد كل هذا من اجل حكاية الاوراق والبودرة والسجائر والحماقات الاخرى . . الامر الذي كنا نناقشه . . كان . . الرب . . .

بدا مغلوبا على امره كلية حتى انني كنت على وشك تقديم الاعتذار له . . ولكنني انتهيت منه الان وابتعدت بخطى عريضة باتجاه الغابة . وفي الظلال الصيفية الطرية كنت اجلس قرب بركة لأقوم بما يدعوه الفرنسيون بمحاسبة الذات . حاولت ان اقلب الادوار واضع نفسي مكانه وانظر الى نفسي عبر عينيه . علي الاعتراف بان المحاولة لم تقدني بعيدا ، ولسبب مجهول لم اصل ان اتقمص دوره بالضبط .

- لو كان اسمي تير يكان - همست لنفسي - اذن لانهيت نفسي منذ وقت طويل ! .

وبهذا المعنى كان تير يكان ضيفا مثاليا . طيلة النهار تقريبا كان يبقى في غرفته ، وباستثناء حضوره للطعام فقد كان يمضي جل الوقت منغلقا على نفسه في الغرفة ، يقرأ اويكتب ، وربما يتأمل ايضا . كنت اشتغل فوقه في الكراج - الاستوديو . كان صوت ماكنة طباعتي يزعجه قليلا في البدء ويذكره بتات - تات - تات الرشاش ، ولكنه انتهى الى الادعاء ان الضجيج كان ينشطه . اثناء الغداء والعشاء . كان وعلى العكس يعطي لنفسه الحرية التامة ، ولكي يعوض عن لحظات وحدته الطويلة فلم يكن يتوانى عن ايجاد المناسبات لجرنا الى نقاش طويل . كانت ثرثرته من ذلك النوع الذي يصعب التخلص منها عندما تنشب اظفارها . عند الغداء - وعندما تستدعي الحاجة ، كنت انهض بغتة منصرفا تاركا اياه ليتدبر امره وحده . الوقت في رأيي هو الشيء الوحيد الثمين ، ومن الافضل عندما يجري افساده بان تذهب لتغسل الصحون من الاصغاء للصديق تير يكان . عند العشاء كان ثمة حكاية اخرى . لم

Twitter: @ketab_n

اكن امتلك وسيلة اخرى لقطع المشهد سوى بالانصراف المباغت، ومع انني لم اكن امتلك البتة وقتا للقراءة في النهار فكنت اغطس ببهجة بقراءة كتاب للسبب ذاك. لا توجد اية وسيلة. طيلة الوقت نكون سمنا على عسل حتى لحظة الوصول الى طاولة الطعام. كان ينبغي انتظار تير يكان حتى نهاية لغطه. ولكي اكون منصفا فان احاديثه لم تكن الا بالفرنسية فحسب. حاول في البداية ان يتعلم الانكليزية ولكنه عدل عن ذلك تحت ذريعة عدم احساسه «بالتعاطف» معها، وكان يعتقد ان الأمر كان اكثر سوءا مع الالمانية سابقا. ومن حسن الحظ فان زوجتي كانت تتكلم قليلا من الفرنسية ولكن ليس بما يكفي لمتابعة فتى لبق مثل تير يكان، موهوب بمثل تلك الطلاقة. انا نفسي كنت اعاني من متابعته احيانا. بين وقت واخر كان يتعين علي مقاطعته لكي يكرر الجمل التي قالها بشكل ابسط لكي استطيع ترجمتها لزوجتي. ومن وقت لآخر ايضا كنت انسى بأننا نتحدث بالفرنسية وارشقه بجملة طويلة بالانكليزية مرغما اياه على التوقف عن الكلام بوجه دون تعابير. كان ينبغي الترجمة اذن. كان يرهقنا. وحينما كنت احاول ان اشرح بالانكليزية بعض الامور لزوجتي كما كان يحدث في الغالب فقد كان يتظاهر بانه قد فهم ما قيل. وكانت هي بدورها تقوم بالادعاء ذاته عندما يقول لي بالفرنسية امرا كان يريد ابقاءه سرا بيننا. وهكذا كنا نتحدث نحن الثلاثة حول موضوع مختلف، هازين رؤوسنا دائما موافقة، مستحسنين بعضنا، قائلين نعم عندما يتوجب قول لا وما شابه ذلك الى اللحظة التي يوصلنا الالتباس فيها الى ان يرفع الواحد منا يده طالبا الكلام، لنعود بعدئذ الى البداية، جملة بعد جملة، وفكرة اثر فكرة، قاصمين ظهور بعضنا بعضا كما لو كنا نقتلع جبلا. ورغم هذه الصعوبة فقد كنا نتوصل الى فهم بعضنا بصورة عالية. وبشكل عام فلم نكن نفقد اثناء هذا المنولوج الطويل كثيرا من المحسنات اللفظية، بل كان ممتعا (ونحن نتوه في تعقيدات الشبكة التاريخية المأخوذة افقيا وفي شروحات مطنبة اكثر من اللزوم لبعض النقاط المستعصية) ان نصغي الى تير يكان. كنت اشرد احيانا مضطربا واكيف سياق التسلية من اجل تذوق موسيقى الكلمات فقط. كان هو لوحده يلعب دور قائد الاوركسترا. عندما كان يقلع فلم يكن للموضوع شأن كبير بعض الشيء.. طعام، كونيات، طقوس، اهرامات، هرمس ثلاثي العظمة، اسرار عوليس، مهما كان الموضوع فإنه سيمتلك الذريعة لاظهار تفوقه فيه، حيث يظهر متدلها، ماهرا، مرتبكا، ولكنه حاذق ومقنع على الدوام. كان يتحلى بشميم انثوي لكل ما هو ثمين. كان يرجع دوما النبرة

Twitter: @ketab_n

الدقيقة ودرجات اللون والتنوع والرائحة والطعم. كانت لديه حلاوة ما، وتذبذب ورقة مخاتلة لساحر، وكان بامكان صوته ان يزين صدى صنج يهتز وسط الموت في عمق الصحراء. كان يتحدث عن (اوديلون ـ ريدون) وكانت لغته ترشح بالوان ثابتة، بتناسق رهيف، سحري، بأبخرة وصور كيمياوية لمفكر ثاقب النظر، بتقطير روحي لا يدرك باللمس ولا يعبر عنه بالكلمات، كانت لغة مستدعاة وموحاة خلال نظام احساسات معين. كان استخدامه لصوته يذكر احيانا بالارغن وبمناطق من البحر المتوسط. التقاء تيار إلهي ودنيوي يتداخل الشكل والروح فيه، تيار يقدر لوحده ان يترجم الموسيقى، بينما كانت الاشارات التي كانت تصاحب الموسيقى مقولبة ومحصورة في نطاق حركات الوجه لوحدها. . حركات مشؤومة، ومختصرة بشكل عامي، شيطانية عندما تتركز ما بين الفم والشفتين، حادة، تثير العطف، متمزقة عندما تكون بين العينين، كانت تجعله يرتجف عندما تحرك فروة الرأس كلها. اما بقية جسمه، اذا استطعت القول فكان يبقى ثابتا الا عندما كان يطبطب او يطرطق باطراف اصابعه بين وقت واخر، حتى ان ذكاءه كان يبدو متمركزا في الصندوق الرنان، في الارغن الواقع ليس في الحنجرة وليس في الصدر انما في منطقة وسطية تتصل بموطن الالهة القديمة التي اخذ منه كل تخيلاته.

كنت افكر بشكل تجريدي في احدى اللحظات الشاردة عندما صادفت نفسي وانا اتجول وسط قصب وأسل نزواتي. كان يحدث انني كنت افحصه كما افحص شيئا عبر مرآة عاكسة وكنت ارى صورته المتغيرة طيلة الوقت دون توقف مثل تغير تشكل الغيوم: تارة حكيم مهموم، تارة كاهنة وثنية، تارة حاكم فضائي[1]، خيمياوي، متأمل نجوم، ساحر، احيانا له شكل مصري، احيانا منغولي، رجل غريب الاطوار، موهيكان، كلداني، وفي الغالب في الهيئات الاكثر دقة القادمة من الماضي والتي كانت تتلبس روحه وتبدو وقد تجسدت فيه للحظة، ويظهر معها صلات قرابة روحية، هذا يعني مونتيزوما، هيرود، نبوخذ نصر، بتوليميه، بلاتزار، جوستنيان، سولون، وهي اسماء موحية بمعنى من المعاني، وبالرغم من انها كانت تؤسس متجمعة بعض الخصائص في طبيعته فانها خصائص عصية على التجمع

(١) ينحت ميللر هنا كلمة تعني حالم الفضاء، أو النجوم.

Twitter: @ketab_n

بشكـل اعتيـادي . كان خليطـا حقيقيـا غريبـا جدا في الحقيقـة . لا النحـاس ولا الجلد ولا الالكتر ون . كان بالاحرى نوعا من خليط غروي دون اسم .

لقد التقط عميقا معه صورة خلقها لنفسه في شبابه ولم يستطع الفكاك منها ابدا ، صورة (رجـل غامض) . في احـد الايـام اراني صورة فوتغـرافيـة له في سن الخامسة عشر او السادسة عشـر ، وقـد اثرت فيّ تأثيرا عميقا . كانت تقريبا نسخة مطابقة دقيقة لصديق طفولتي (جوس شملزر) الـذي كنت اسخـر منـه في السـابق وازعجـه اكثر من المعقول بسبب سيمائه المعتم ، الازلي العتمة والكآبة .

لقد كانت محفورة منذ ذلك العمر ـ وربما منذ وقت ابكر ـ في روح تير يكان جميع الانماط التي تستـدعيهـا المصطلحات ، قمري وزحلي وضريحي ، ويمكننا الآن ان نتخيل مومياء تحت جلده ونـرى عصفـورة الشؤم الحـاطـة على كتفه الايسر ونشعر بضوء القمر الذي يفسد دمه ويـربـك شبكـة عينيه ويضفي على بشرته شحوب سجين اومدمن اوساكن كواكب محرمة . يستطيع من يعرفه ان يتخيل تلك المجسات التي كان فخورا بها والتي وثق بها ثقة اثقلت على عضلات جسده الحساسة اذا استطعت القول .

يمكنني الـذهـاب بعيـدا ـ ولمَ لا ـ والقـول بأنني عنـدمـا كنت احـدق عميقـا في عينيـه المهمـومتـين ، المعتمتين ، القرديتين فقد كنت ارى خوفا مركبا ، كنت ارى جبل الجلجلة دون نهايـات ، عينيـه الكهفيتـين ، المضاءتين بضوء بارد ، جاف ، قاتل ، القادمتين من كون تجتازه مخيلة حالم علمي ، عديم الـرحمـة . كان استـاذا لفن البعث . حالمـا يمسك شيئا عابقا برائحة المـوت فقـد كان يعيـده الى الحيـاة . كل ما يمكن ان يجيء من القبـور سيصفى عبرة . كان يكفي ان يحرك عصـاه السحـريـة ليخلق مظهـرا من مظـاهـر الحيـاة . سوى انه لن يوجد في النتيجـة كما في اي ضرب اخـر من ضروب السحـر سوى الـرمـاد والـتـراب . لم يكن الماضي بالنسبة له ـ الا نادرا ـ سوى ماض حي . حتى بوصفه للبشر الاحياء كان يفكر بكتالوج مواد متحفيـة . وفي حماسـه لم يكن يفـرق بين ما هو كائن ومـا قد كان . كان الـزمن ثابتا في مكانه . مكان دون موت ودون علاقة مع الحياة . يقال بأن انماط الجدي يصغون لبعضهم ، هذا لأنهم يمتلكـون دون شك الكثـير من الأمـور المشـتـركـة ، ومـع ذلـك فأرى بانـه يوجد الكثير من الاختلافات بين هذه الكائنات المبتذلة ، ان لديها صعوبات جمة للاتصال مع بعضها اكثر مما

Twitter: @ketab_n

بينها وبين انماط الابراج الاخرى. إن الاتفاق المشترك بينهم هو تحالف ظاهري، نوع من هدنة. انهم يشعرون بالسعادة في الاماكن العالية العميقة ومن النادر ان يقضوا وقتا طويلا في المناطق نفسها. لديهم قرابات مع الصخور ووحوش البحر اكثر مما مع نظرائهم. ما يمكن ان يدركوه هو ان اختلافاتهم تتأتى بسبب اختلاف درجات الارتفاع فحسب، وبسبب تغير مواقعهم بشكل جوهري. انهم يقدرون على الطواف مع الآخرين ولا شيء اسهل عليهم من التماثل معك او معي. من هنا خصيصتهم المشتركة في عفوهم عن اخطاء الاخرين دون ان ينسوها ابدا. انهم لا ينسون شيئا مطلقا. ذاكرتهم خارقة. ليسوا قادرين على تذكر محنهم الشخصية والانسانية فحسب، انما ايضا محنهم ما قبل البشرية وما تحت البشرية. انهم قادرون على الانسلال من غرينهم البلازمي بسهولة انسلال السمكة من الوحول. لديهم ذاكرة نجم، واوضاع ملائكة كما لو انهم قد تعرفوا على الحرية، لوقت طويل، خلال العلاقة مع عبودية دنيوية. كما لو ان لغة الملائكة ذاتها كانت شائعة لديهم، يستطاع القول ايضا بان الحياة الارضية في الحقيقة هي اقل ما يناسب هؤلاء المبتذلين من بين جميع الابراج الاخرى. الارض بالنسبة لهم هي مجرد سجن، مطهر، مكان للتكفير فحسب، وهي في آن شرنقة يهربون اليها مسلحين باجنحة لا تقبل التلف. من هنا ايضا طبيعتهم الوسيطية والتوطنية ورغباتهم للاذعان وقابلياتهم الاستثنائية للتبدل. انهم ينسابون في العالم كزوار صائرين الى كوكب اخر، الى فلك اخر، مواقفهم باستمرار تمت بصلة لرجل يوجه الوداع الاخير للاشياء الارضية وهو يلقي النظرة الاخيرة حواليه. انهم يهيئون الجسد الجديد والشكل الجديد الذين سيأخذان بهما اجازة دائمة من الارض. انهم يموتون ميتات لا تحصى بينما يموت الاخرون مرة واحدة وحيدة، هنا حصانتهم ضد الحياة وضد الموت. ارض آلهتهم الحقيقية هي قلب السر، هناك كل شيء واضح لهم، هناك يعيشون منفصلين، يحيكون احلامهم ويشعرون انهم في بيوتهم.

لم يمض تيريكان معنا سوى اسبوع واحد عندما استدعاني الى حجيرته من اجل ان «يستشير ني» بأمر ما، وكان الأمر يتعلق بوظائف (الكودائين). ابتدأ باستهلال طويل حول معاناته وحرماناته منذ الازل وانتهى بعرض سريع للكابوس الذي عاشه خلال اقامته قريبة العهد في سويسرا، التي لم تكن مطلقا بلده على الرغم من مواطنته السويسرية. لم تكن مناخه، ولا درته الحلوب، شارحا لي ان المهانات التي تعرض لها خلال الحرب العالمية لم تكن

Twitter: @ketab_n

شيئا ازاء المهانات التي فرضها عليه مواطنوه القساة. لكي يصل في الاخر الى جربه. نهض وقام بحركة استعراضية ليخرج لي سيقانه من بنطلونه. ارتعبت. لم تكن سيقانه سوى جرح. ها هنا صارت عنده حاجة ملحة ليثقل علي بالموضوع.

آه! كان يريد فقد التزود بقليل من الكودائين اذن!! وهو يشرح لي انه يهدىء من عصبيته ويسمح له بالنوم قليلا على الاقل حتى اذا لم تنته الحكة. طارحا علي السؤال فيما اذا كان يمكنني عندما سأذهب الى المدينة في الغد ان اجده له؟

ـ سأحاول. أجبت.

لم استخدم البتة لا الكودائين ولا أي ضرب من المخدرات المنومة او المنشطة وكنت اجهل لذلك بأنه لا يمكن استلام الكودائين الا بورقة من الطبيب حيث اعلمني الصيدلي بذلك في اليوم التالي، ولكي لا اخيب آمال تيريكان فقد هرعت لرؤية طبيبين من معارفي وسألتهما تزويدي بهذه الوصفة ذائعة الصيت. ورفض الاثنان. عندما اعلمته بالامر انتابه غضب مجنون. واذا ما صدقناه فان الجهاز الطبي الامريكي كان يتآمر لتصعيد معاناته.

ـ هذا مستحيل. صرخ. حتى في سويسرا نبيع هذا بشكل حر، يمكنني الافتراض الان بأنني سأكون محظوظا لو طلبت الكوكايين او الافيون!.

مر يوم او يومان دون ان يفتح عينيه، تبعهما باستشارتي مرة اخرى، قال لي هذه المرة بأنه قد فكر بحل حاسم، حل ناجح وبسيط. ان يكتب الى صديق صيدلي في سويسرا رسالة يسأله فيها ارسال الكودائين ضمن مظروف الرسالة بذرات دقيقة. فأجبته ان مثل هذه (الطلبيات) سيحاسب عليها القانون حتى ولو بكميات صغيرة، واضفت بانه اذا ما قام بعمل من هذا القبيل فانا نفسي سأتعرض للمحاكمة.

ـ اي بلد! اي بلد! كان يصرح وهو يرفع يده الى السماء.

ـ لمَ لا تحاول اخذ الحمامات المعدنية ثانية. اقترحت عليه ووعدني بان يفعل ولكن مثل شخص طلب اليه ان يلتهم جرعة من زيت كبد الحوت. كنت اريد الانصراف عندما عرض امامي رسالة من مؤجرته السابقة تتعلق بالملاحظة الشهيرة حول الايجار المتأخر ووعدي غير

Twitter: @ketab_n

الموفى به. اعترف بان المرأة المسنة وفاتورتها الحقيرة قد دفعتني الى الخروج عن طوري تماما. لم يكن لدينا نقود في البنك وكان في جيوبي بضعة فاتورات متأخرة. فتشتها ثم سحبت ما كان في داخلها ووضعته على الطاولة قائلا:

ـ ابعث لها بهذا، ربما سيرضيها بعض الوقت.

بعد مضي اسبوع كان ثمة احتفال جديد. كان يلوح هذه المرة بمظروف مفتوح توا. وهو رسالة من صديقه الصيدلي السويسري، يذكر له فيها بانه في غاية السرور ان يجد نفسه وهو يقدم خدمة اليه وكنت ارى اقراصا صغيرة في راحتيه.

ـ ها انت ترى. قال لي. ثمة وسائل عديدة لاستخراج الاقراص. كان من العبث ان استشيط غضبا، لم انبس ببنت شفة، مرغما على الاعتراف بامكانية التصرف بطريقة مماثلة لو وجدت نفسي في ظرف مشابه. كان المسكين بالتأكيد في غاية اليأس. لم يكن للحمامات ادنى تأثير، واذا ما صدقناه فلم تفعل سوى انها فاقمت حالته. وفي جميع الاحوال: وداعا للحمامات! كانت سما لجسده.

كان يتجول في الغابة وقد نال الاقراص التي يريد. برافو. قلت لنفسي. كان بحاجة الى تمارين وقد قام بالكثير منها. وكانت هذه النزهات من جهة اخرى مفيدة له، فلقد اشبعت الغابة حاجة في روحه السويسرية. كان يعود منها كل مرة متهللا، منهكا يعلن:

ـ هذا المساء استطيع النوم دون الاقراص.

وكان يتوهم الاوهام، فحالته تزداد سوءا، ويستمر بالحكة حتى في اعمق اعماق نومه، وكان الالتهاب ينتقل. انه الآن في الذراعين وسيخرب الجسد كله قريبا ما عدا، ربما، اعضاءه الجنسية. كانت لديه ايضا اوقات من الاستراحات. عندما يكون لدينا ـ ضيوف يتحدثون الفرنسية طبعا ـ فان معنوياته تتحسن بين عشية وضحاها. كما يبدو وقد تحسن، كذلك، عندما يستلم رسالة من احد اصدقائه الذين كانوا يمضون عقوبة في السجن بسبب نشاطات جديرة بالعقاب اثناء الاحتلال. في احيان أخرى فان عشاء استثنائيا كان يكفي لوحده لوضعه في مزاج رائق خلال يوم او اثنين. كان يبدو وكأن الألم لم يتوقف مطلقا ولكن الحكة هي المنقطعة فحسب لحظتئذ. في الايام القليلة الماضية ادرك اكثر فاكثر بانني شخص

Twitter: @ketab_n

يحب الناس إمطاره بالهدايا. كنت استلم اثناء وصول البريد علبا تحتوي على مختلف صنوف الهدايا، وما كان يدهشه هو ان هذه الهدايا المتوالية كانت تتضمن بالضبط الاشياء التي كنا بأمس الحاجة اليها. فاذا اوشك النبيذ على النفاد عندنا، كان يصل احد الاصدقاء بذراع مثقلة بقنان فخمة منه، واذا ما نقصت المشروبات الاخرى فمن النادر ان لا يصل احد الجيران لامدادنا بكميات وفيرة كنا نعتمد عليها لاشهر طويلة، بينما كانت الجرائد والمجلات في تدفق لا ينقطع، ومن وقت لآخر كان احدهم يزودني بمجموعات كاملة من الطوابع البريدية، وحدها النقود لم تكن تتدفق. كانت تهبط بالقطارة.. بقطرات هزيلة سريعة النضوب.

كان تيريكان يلمح تساقط المن والسلوى ذلك، ودفقات الزوار بما فيهم المتطفلون والمضجرون.

ـ انهم يساهمون ـ كان يقول ـ بالتخفيف من اعبائنا، وهذا طبيعي، كان يضيف، فهذا مكتوب في طالعك، لن تبقى ابدا دون حماية حتى لو تركك (جوبيتر) تسقط للحظة، ما هو سيء ينتهي على طول الخط لصالحك، انت الرابح كما تقول تفصيلات لوحة الحظ.

ولم اتردد بالتضرع اليه موضحا له بأنني كافحت طيلة حياتي وتوجب علي ان اقدم تضحيات جمة في خضم هذا الكفاح، ولكنني كنت اقول مع نفسي في ذات الوقت:

ـ لا يكفي ان يكون هذا موجودا في طالعه بالطبع، ينبغي ارغامه ايضا على الاعتراف بالخدمات والافضال التي كان اصدقاؤنا يغدقونها عليه.

لم يكن يهتم بالجهود التي كان يبذلها كل واحد من هؤلاء الاصدقاء لضمان حياة رغيدة له، وكان يبدو وكأنه يعتبر ما يجري وكأنه يجري اعتباطيا ومن تلقاء نفسه. في بلد غني مثل هذا! فكروا اذن! الامريكيون طيبون وكرماء.. هكذا! الا تعرفون ذلك؟ انهم بالاحرى لا يحطمون رؤوسهم مستغرقين بتأمل اية مشكلة جدية. لقد ولدوا محظوظين، ويسهر الرب عليهم. كان ثمة ظلال من الاحتقار تنساب خلال احاديثه وهو يشير الى الروح العطوف للامريكيين. كان على الدوام يهاجمنا وهو يصفنا على هيئة قرنبيطات ضخمة، جزرات، قرنغات، وبهيئات منيفة من النباتات والفواكه الاخرى التي كنا ننتجها بكميات لا تنضب.

Twitter: @ketab_n

الموفى به. اعترف بان المرأة المسنة وفاتورتها الحقيرة قد دفعتني الى الخروج عن طوري تماما. لم يكن لدينا نقود في البنك وكان في جيوبي بضعة فاتورات متأخرة. فتشتها ثم سحبت ما كان في داخلها ووضعته على الطاولة قائلا:

ـ ابعث لها بهذا، ربما سيرضيها بعض الوقت.

بعد مضي اسبوع كان ثمة احتفال جديد. كان يلوح هذه المرة بمظروف مفتوح توا. وهو رسالة من صديقه الصيدلي السويسري، يذكر له فيها بانه في غاية السرور ان يجد نفسه وهو يقدم خدمة اليه وكنت ارى اقراصا صغيرة في راحتيه.

ـ ها انت ترى. قال لي. ثمة وسائل عديدة لاستخراج الاقراص. كان من العبث ان استشيط غضبا، لم انبس ببنت شفة، مرغما على الاعتراف بامكانية التصرف بطريقة مماثلة لو وجدت نفسي في ظرف مشابه. كان المسكين بالتأكيد في غاية اليأس. لم يكن للحمامات ادنى تأثير، واذا ما صدقناه فلم تفعل سوى انها فاقمت حالته. وفي جميع الاحوال: وداعا للحمامات! كانت سما لجسده.

كان يتجول في الغابة وقد نال الاقراص التي يريد. برافو. قلت لنفسي. كان بحاجة الى تمارين وقد قام بالكثير منها. وكانت هذه النزهات من جهة اخرى مفيدة له، فلقد اشبعت الغابة حاجة في روحه السويسرية. كان يعود منها كل مرة متهللا، منهكا يعلن:

ـ هذا المساء استطيع النوم دون الاقراص.

وكان يتوهم الاوهام، فحالته تزداد سوءا، ويستمر بالحكة حتى في اعمق اعماق نومه، وكان الالتهاب ينتقل. انه الآن في الذراعين وسيخرب الجسد كله قريبا ما عدا، ربما، اعضاءه الجنسية. كانت لديه ايضا اوقات من الاستراحات. عندما يكون لدينا ـ ضيوف يتحدثون الفرنسية طبعا ـ فان معنوياته تتحسن بين عشية وضحاها. كما يبدو وقد تحسن، كذلك، عندما يستلم رسالة من احد اصدقائه الذين كانوا يمضون عقوبة في السجن بسبب نشاطات جديرة بالعقاب اثناء الاحتلال. في احيان آخرى فان عشاء استثنائيا كان يكفي لوحده لوضعه في مزاج رائق خلال يوم او اثنين. كان يبدو وكأن الألم لم يتوقف مطلقا ولكن الحكة هي المنقطعة فحسب لحظتئذ. في الايام القليلة الماضية ادرك اكثر فاكثر بانني شخص

Twitter: @ketab_n

يحب الناس إمطاره بالهدايا. كنت استلم اثناء وصول البريد علبا تحتوي على مختلف صنوف الهدايا، وما كان يدهشه هو ان هذه الهدايا المتوالية كانت تتضمن بالضبط الاشياء التي كنا بأمس الحاجة اليها. فاذا اوشك النبيذ على النفاد عندنا، كان يصل احد الاصدقاء بذراع مثقلة بقنان فخمة منه، واذا ما نقصت المشروبات الاخرى فمن النادر ان لا يصل احد الجيران لامدادنا بكميات وفيرة كنا نعتمد عليها لاشهر طويلة، بينما كانت الجرائد والمجلات في تدفق لا ينقطع، ومن وقت لآخر كان احدهم يزودني بمجموعات كاملة من الطوابع البريدية، وحدها النقود لم تكن تتدفق. كانت تهبط بالقطارة.. بقطرات هزيلة سريعة النضوب.

كان تيريكان يلمح تساقط المن والسلوى ذلك، ودفقات الزوار بما فيهم المتطفلون والمضجرون.

ـ انهم يساهمون ـ كان يقول ـ بالتخفيف من اعبائنا، وهذا طبيعي، كان يضيف، فهذا مكتوب في طالعك، لن تبقى ابدا دون حماية حتى لو تركك (جوبيتر) تسقط للحظة، ما هو سيء ينتهي على طول الخط لصالحك، انت الرابح كما تقول تفصيلات لوحة الحظ.

ولم اتردد بالتضرع اليه موضحا له بأنني كافحت طيلة حياتي وتوجب علي ان اقدم تضحيات جمة في خضم هذا الكفاح، ولكنني كنت اقول مع نفسي في ذات الوقت:

ـ لا يكفي ان يكون هذا موجودا في طالعه بالطبع، ينبغي ارغامه ايضا على الاعتراف بالخدمات والافضال التي كان اصدقاؤنا يغدقونها عليه.

لم يكن يهتم بالجهود التي كان يبذلها كل واحد من هؤلاء الاصدقاء لضمان حياة رغيدة له، وكان يبدو وكأنه يعتبر ما يجري وكأنه يجري اعتباطيا ومن تلقاء نفسه. في بلد غني مثل هذا! فكروا اذن! الامريكيون طيبون وكرماء.. هكذا! الا تعرفون ذلك؟ انهم بالاحرى لا يحطمون رؤوسهم مستغرقين بتأمل اية مشكلة جدية. لقد ولدوا محظوظين، ويسهر الرب عليهم. كان ثمة ظلال من الاحتقار تنساب خلال احاديثه وهو يشير الى الروح العطوف للامريكيين. كان على الدوام يهاجمنا وهو يصفنا على هيئة قرنبيطات ضخمة، جزرات، قرعات، وبهيئات منيفة من النباتات والفواكه الاخرى التي كنا ننتجها بكميات لا تنضب.

Twitter: @ketab_n

عندما دعوته للقدوم والعيش معنا حتى اواخر حياته فان المعروف الصغير الوحيد الذي كنت آمله منه هو ان يعلم ابنتي قليلا من الفرنسية اذا امكن ذلك، غير انه وخلال المدة كلها التي قضاها معنا فإنه لم يقم بتعليمها سوى (نعم) و(لا) و(صباح الخير، مساء الخير مسيو تير يكان). لم يكن ليهتم بشؤون الأطفال ابدا. كانوا يضايقونه، ما عدا عندما يكونون جيدي التربية بشكل راق. ومثل الغالبية ممن تلقوا قسطا من تربية جيدة فان طفلا مربى يعني بالنسبة اليه ان يختفي الطفل من امام انظار الكبار. لم يكن يفهم لا الاهتمام الدؤوب الذي كنت اوليه للصغيرة في جولاتنا اليومية وفي تسليتها وافراحها وتعليمها ولا صبري في الاصغاء الى اسئلتها المحرجة وخضوعي لاستبدادها الممتع. لم تكن لديه ادنى فكرة عن البهجات التي تتملكني اثناء ذلك. كان واضحا بأن الصغيرة كانت تشكل بهجتي الوحيدة، الامر الذي لم يكن يراغب في معرفته. لقد كانت فال تحوز السبق في كل ما كان يغضب الاخرين. لا اتكلم عن تير يكان ولكن عن زوجتي بشكل اخص. كانت النتيجة ان الجميع لم يكونوا ليخفوا عني شهرتي كأبله يشيخ منهمكا بافساد ابنته الوحيدة. واعترف بان هذا كان يمكن ان يبدو صحيحا من الخارج فحسب، ولكنني كنت اتردد في قول الحقيقة العميقة لاقرب الاصدقاء. الانكى من ذلك من جهة اخرى، ان جميع اولئك الذين كانوا يأخذون علي ليونتي الزائدة مع الصغيرة كانوا هم انفسهم من يفرطون في تدليل حيواناتهم المحبوبة وتقديم آيات الاعتزاز والعطف لها بمبالغة فادحة. ان اسفي الوحيد ازاء فال ـ وهي من دمي ولحمي وبؤبؤ عيني ـ هو انني لم اكن قادرا على تكريس المزيد من الوقت لها والمزيد من الانتباه.

في ذلك الوقت كان من بين الامهات الشابات من هوين تقليعة الرقص، وبعضهم الغناء. كل ذلك كان جيدا جدا وجديرا بالاحترام كما يقال، لكن السؤال هو: هل كن يعلمن اطفالهن الرقص والغناء ايضا؟ ابدا. لقد كنا نرى لاحقا بان هؤلاء الاطفال عندما كانوا يدركون سن الدخول في صف الباليه او اي صف اخر من هذا النوع فان نساء ذلك الوقت كن يقمن (بالضروري) لتربية ابنائهن فقط، حيث انهن في شغل شاغل للابتهاج بمواهبهن المتنوعة هن.

في احد الايام كنت القن فال اغنيتها الاولى. كنا نعود مشيا على الاقدام بعد جولة في الغابة. كنت اضعها على كتفي لكي اريح قدميها الصغيرتين المتعبتين. فجأة طلبت مني الغناء.

Twitter: @ketab_n

ـ ماذا تريدين ان اغني؟ .

سألتها وانا اضيف تلك المزحة غير المؤذية لابراهام لنكولن بأنني لا اعرف سوى اغنيتين الاولى هي (يانكي دودل) والاخرى لم اعد اتذكرها .

ـ غنها! طلبت مني .

غنيتها بأعلى صوتي . بعد وقت قصير كانت تغني معي ، وعندما وصلنا المنزل كانت قد حفظت الكلمات عن ظهر قلب . كنت منذهلا تماما . وكان عليها ان تغنيها ستة وثلاثين الف مرة . كانت رائعة هذه اليانكي دودل هنا واليانكي دودل هناك وليعش المتزوجون! .

لم يصب تير يكان اي نصيب من هذه المتعة . كان دون شك يقول مع نفسه : «مسكين ميللر! انه لا يملك اي احساس بما هو مبهج!» مسكينة فال، كم مرة جرح شعورها عندما كانت تحاول غناء بضعة كلمات معه ، ولم تكن تحصل في كل مرة سوى على صد جاف بدلا من الغناء :

ـ انا لا اتكلم الانكليزية! .

كان يتضايق منها بشكل عجيب ، من ثرثرتها الصبيانية التي كنت اجدها لذيذة ، من طريقة إحساسها .

ـ عليكما ان تؤدباها . كان يقول لي . انه لامر سيء للغاية ان يجري الاهتمام بطفلة بهذا المقدار .

زوجتي كانت تشاطره هذه الطريقة في الرؤية . وقد تأثرت به وكانت تتأوه شاكية بانني كنت اتصدى لكل جهودها التربوية وبانني كنت اجد متعة خبيثة برؤية الطفلة وهي تسلك سلوكا سيئا . كان صعبا بالنسبة لها هي نفسها ان تمتلك ارادة حديدية ، ولكنها كانت ترى في الطاعة سبيلا وحيدا .

ـ انه يؤمن بالحرية . قالت وكانت تعني بان فكرة الحرية هذه ما هي الا شيء خالص التفاهة . بينما كان تير يكان يستطرد :

Twitter: @ketab_n

ـ آه : نعم، ان الطفل الامريكي هو بربري صغير، في اوروبا يعرف الاطفال الحدود التي ينبغي عليهم عدم تجاوزها. هنا الاطفال هم السادة.

وللأسف فان هذا ليس هو الحقيقة. ومع ذلك فان ما نسي ان يقوله ـ وهو ما لا يجهله اي اوروبي مثقف ولم يكن هو نفسه يجهله كما اعترف لي مرارا ـ بانه في اوروبا، وفي اوروباه هو خصوصا، فان الاطفال ينضجون بوقت مبكر، وانهم يتربون الى درجة الموت، ويتربون ليس بشكل بربري فقط ولكن فظ ومجنون ومبلد ايضا، وبان تلك الاجراءات القاسية، التأديبية استطاعت انتاج اطفال حسني التربية ولكنها نادرا ما انتجت ناضجين متحررين. بل انه نسي ما كانت عليه طفولته والنتيجة التي قاد اليها التأديب والتهذيب والطرق الحسنة في حالته الخاصة. ولكي ينفي التهمة عن نفسه فقد توصل الى ان يشرح لزوجتي بانني فوضوي بالولادة، وانني امتلك معنى شديد الخصوصية للحرية وبأن فكرة الطاعة ذاتها ترعب طبيعتي، وبأنني متمرد وخارج عن القانون ورقم غريب عن الراهن، وان وظيفتي في الحياة هي خلق البلبلة، مضيفا الى ذلك كله بنبرة جدية كثيرا بان امثالي ضروريون. واستدرك بعدئذ خائفا من ان اطلق العنان لنفسي لاذهب ابعد مما ذهبت اليه، وهو يضيف هذه المرة رتوشا للوحة قائلا بانه ينبغي ان نعرف ثانية بانني طيب الى حد كبير وكريم وجد صبور ومتسامح وحليم وميال الى العفو كما لو ان هذه الصفات تعادل العنف والفظاظة والاستهتار والغدر العميقات في داخلي، وصار يؤكد عندما وصل الى هذا الحد وحسب تجربته الشخصية، فانني استطيع ان ادرك ايضا معنى التأديب طالما ان موهبتي ككاتب تتوقف على اتجاه اكثر تشددا من الانضباط الذاتي.

انه كائن معقد. وتنفس الصعداء وقد بت في الامر نهائيا. لحسن الحظ فانني افهمه واعرفه من الفه حتى يائه. كان يضغط ابهامه على الطاولة وكأنه كان يسحق قملة. انه انا، هناك تحت ابهامه، انا هذا المسخ الذي كان يدرسه ويحلله ويفحصه عميقا وكان يقدم الدليل كل مرة بأن المناسبة تمثله ولا احد سواه. كانت الاماسي تبتدىء بطالع سعيد وتنتهي بنقاش غامض حول واحد من المشاكل المنزلية. انني امقت هذا النوع من الحوارات، لكن زوجتي وقرينتي كانت تجد لذة فيها، خصوصا اذا ما وجدت اذنا مصغية الى جوارها. كنت قد استبعدت منذ امد طويل، كما استبعد امرا تافها، اي امل باتفاق معها بوسائل الحوار بما انني

Twitter: @ketab_n

كنت اخاطب حائطا، وحددت مواضع تدخلي بتقديم ايضاحات بسيطة عندما اجد الحقيقة وقد تشوهت تشوهـا كبيرا او تعرضت للسخرية. لم اكن اعترض طيلة الوقت سوى على الصمت الطويل. وكان المسكين تير يكان يعي جيدا بان كل حقيقة لها وجهان اثنان، وكان يسعى مثل الشيطان الرجيم آملا بنقل الحديث الى ارض اكثر تجريدية.

لن تتـوصـلي لشيء مع شخص مثـل ميللر. كان يقـول لزوجتي: انـه لا يفكـر بنفس طريقتـك ولا طريقتي. ان نمـط تفكـيره ذو نسق دائـري، انـه يفتقـر الى المعنى والمنطق والقياس، انه يحتقر العقل والاحساس. وشرع بعدئذ بتصنيف خصالها وعيوبها لكي يتوصل الى الـبرهنـة باننـا لا يمكن ان نمتلك وجهات النظر ذاتها. انا وهي. «لكنني انا وحدي من يفهمكـما، واستطيـع ان العب دور الحكم واعيـد تلصيق القطـع ثانيـة». اما في الممارسة فقد فضح اسبابا اقل شأنا من السبب الآنف، كاشفا عن حكم بخصائص عليا، وبفضل وجوده بيننـا فان ما كان يمكن ان ينتهي انفجـارا صار ينتهي بالـدمـوع وبحـرد مضطرب فحسب، حتى انني صرت اتضـرع للسـماء مرارا بان يكـون تعبـا ليتركنا وشأننا ولو امسية واحدة، بينما كنت احس ان زوجتي كانت تفضل العكس، وهي ترى ان فرصتها الوحيدة للتحدث معي، لمناقشتي بالحقيقة، هي بحضوره. ان ننزوي كل في خرسه كان افضل من التقافز على رقاب البعض. كان تير يكـان يوقـظ هذه الشجـارات الغـاضبـة الطويلة ولكن بنبرة اقل خطورة. وبفضله استطعنا راهنا التوصل لان نفكك افكارنا وان نفحصها دون كبير شغف تحت زوايا مختلفة تقوم بافراغ هذه الافكار من طبائعها العصابية. كان يقوم بمناسبات شبيهة باستخدام حكمته التنجيمية، ذلك انه لا يوجد امر يمكن ان يهديء اكثر، ويسلي اكثر اناسا عاطفيين من ترجمة فلكية لضجرهم بسبب النزعة الموضوعية الباردة لتلك الحكمة.

لم نكن بالتأكيـد متحمسـين طيلة امسيـاتنـا للنقاشات ولتوبيخ بعضنا. كان هناك ما هو ممتـاز. كان الاحسن هو ان نطلق لتـير يكـان العنان. الم يكن ملك فن المنولوغ! اذا ما وصلنا عرضا الى موضوع مثل الرسم فقد كنا نكافئه مكافأة دسمة: الاصغاء اليه. وكان يعرف في الحقيقة الكثير من الرسامين، المشاهير فيما بعد. وفي سنوات ثرائه كان لديه يقينا صديق من بينهم. كل طرفـه المتعلقـة بما اسميه بالعصر الذهبي ـ اي العقدين الاول والثاني اللذين قادا الى ظهور المدرسة الوحشية في الرسم ـ كانت لذيذة، بمعنى الاصغاء اليه اثناء وجبة لذيذة

Twitter: @ketab_n

غنية. كانت عقود الفترة الوحشية لاذعة على الدوام برصدها السري الذي لم يفقد البتة جاذبيته الشيطانية حتى الآن. بالنسبة لي فان العصر الذهبي هو فترة مكتظة بالحياة وبالاهتمامات. لقد اسفت دائما لانني ولدت عشرين او ثلاثين سنة متأخرا عنه، ولانني لم ازر اوروبا (ولم اقم فيها) اثناء شبابي، اي قبل الحرب العالمية الاولى، ما الذي كان يمكن ان تعطيني رفقة اصحاب حيمين مثل ابولونير والجمركي روسو وجورج مور وماكس جاكوب وفالمنك وأوتريلوا ودرين وسوندرار وغوغوين ومودلياني وسنجرا وبيكابيا وموريس ماغر وليون دوديه وكثيرين اخرين، كم كان يمكن ان اكون سعيدا بالتطواف على اطراف السين وباجتياز واعادة اجتياز جسوره، التطواف في بوجيفال وشاتو وارجونتوي ومارلي لوروا وبوتو ورامبوييه وايسي لي مولينو واماكن اخرى مثيلة، حوالي سنة ١٩١٠ بدلا من سنة ١٩٢٨ او سنة ١٩٣٣! اي اختلاف في مشاهدة باريس من طابق ثان من باص مكشوف في عمر واحد وعشرين عاما! أو مشاهدة الشوارع العريضة بجولة تسكعية في فترة يزينها الانطباعيون!.

كان تير يكان يمتلك المقدرة على بعث كل فخامة وكل بؤس، ولقد ايقظ فينا حنينا الى باريس، هذا الحنين الذي كان (كاركو) سيد ايقاظه، الى اراغون وليون ـ بول فارج والى الكثير من الكتاب الفرنسيين الذين منحونا ذات الحنين اليها مرارا وتكرارا. كان يكفي ان يشير الى اسم شارع او الى اثر تاريخي او الى مطعم او مرقص، لم يعد لهما وجود، حتى تثار مخيلاتنا.

لقد كانت استذكاراته هذه ـ بالنسبة لي ذات اثر لاذع على الرغم من انه كان يستذكرها بعيني نفاج. لقد حاول عبثا المشاركة ولو بشكل ضيق في تلك الحياة. لم يعان ابدا مثل اولئك الذين يتحدث عنهم. بل انه صار يعاني في وقت لاحق، عندما اصبح من لم يقتل في الحرب ومن لم ينتحر مشهورا. كنت اتساءل محدثا نفسي فيما اذا تخيل تير يكان نفسه اثناء فترة ثرائه مضطرا لاستجداء بعض القروش يوما من صديقه الفقير ماكس جاكوب. ماكس الذي تخلى عن العالم ليعيش زاهدا. انه لامر مرعب حقا ان تتهاوى في زمن يتصاعد فيه اصدقاؤك القدامى مثل نجوم وحيث يغدو العالم حفلة بائسة ومقبرة لاحلامك واوهامك بعد ان كان ارضا واسعة للعبك.

ومثلما كان يشمئز من (الجمهورية) وكل ما تمثله عندما صادف ان تحدث عن الثورة

---

(١) هو الرسام الفطري هنري روسو (١٨٤٤ ـ ١٩١٠).

Twitter: @ketab_n

الفرنسية، فانه كان يبدو اثناء ذلك وكأنه يقف وجها لوجه مع الشر عينه. لقد كان يستنبط الفساد والكوارث والانحطاط من اليوم الذي استولى فيه السوقة، المسمون خلاف ذلك، على السلطة. افكر الان بانه كان غريبا بالفعل انه لم يحدثنا عن (غيل دوريه) اوعن (راما كريشنا) و(ميلاريبا) وعن سان فرانسوا. نابليون نعم، بسمارك نعم، فولتير نعم، فينون وفيون نعم، ونعم بالطبع لفيثاغورس. كان العالم الاسكندري مألوفا لديه، كان يسكن عينيه وكأنه عرفه خلال تجسد سابق. كان عالم الفكر المانوي يمثل حقيقة بالنسبة اليه. اما تعليمات زاردشت فكان يحفظ بايثار الجوانب التي تعلن (حقيقة الشر) فيها. ولربما كان يؤمن بان (ورموزد) سيتغلب يوما على (اهريمون) ولكنه احتمال قد يتحقق في مستقبل بعيد للغاية، ابعد من ان يدفع الى تأمل الموضوع، سيكون تأملا لا طائل وراءه. كلا. ان (حقيقة الشر) كانت دون شك هي يقينه الراسخ، المتجذر فيه هو نفسه، وقد كان يعي جيدا ان هذه الحقيقة تمنعه بعمق من الابتهاج بأيما شيء.

في احد الايام كنا نلامس موضوعا اثيرا لديه عندما سألني بغتة فيما اذا فقدت الاهتمام بفن التنجيم:

ـ انت لا تتحدث عنه مطلقا. قال.

بالتأكيد. اجبت، لا ادري بماذا سترفدني متابعته. لم اهتم به للأسباب ذاتها التي تحملك على الاهتمام به، كان بالنسبة لي نوعا من لغة جديدة للتعلم، نظاما لماكنة جديدة. ليس سوى الوجهة الشعرية للاشياء هي التي تمتعني حقا. ولا توجد في اخرة الحساب سوى لغة واحدة هي لغة الحقيقة، اما كيف نتوصل اليها فهو امر قليل الاهمية.

لقد نسيت تفصيلات رده علي ولكنني اتذكر ان جوابه تضمن عتابا لم يحسن اخفاءه على الاهتمام الدائب الذي اوليه للفكر الشرقي، كان يريد القول بانني مستغرق بالتأمل المطلق، الجرماني الى ابعد الحدود، وان طريقة المقاربة التنجيمية كانت عنصرا يخفف هذا النوع من التأمل، وانها قد ساعدتني على التكامل والتجمل وعلى تنظيم الكثير من الاشياء المشوشة والسديمية في داخلي، وبدون ان نحسب عنصر المخاطرة، فان بشرا من نمطي اما ان يغدوا اصحاء او متعصبين.

Twitter: @ketab_n

ـ ليسوا مجانين؟ .

ـ ابدا .

ـ ولكنهم اذن بلهاء! هذا حسن .

كان جوابه على ذلك نعم ولا في آن، لانني كنت احمل ارثا دينيا، ميلا الى الميتافيزيقي، واحمل نسيجا دقيقا متشابكا من التواضع والادعاء، من الندم والتفحص في آن، الخ . .

ـ هل تعتقد ان معرفة عميقة بفن التنجيم ستساعدني على تجاوز هذه النزعات؟ .

ـ لن اقول بالضبط هذا، ببساطة سأقول بانه سيساعدك على ان ترى بوضوح اكبر وان تفحص بشكل احسن مشكلاتك . .

ـ لكنني لا املك مشكلات . اجبت . وبالاحرى فانها ذات طبيعة كونية . انا بسلام مع ذاتي ومع العالم، حسنا انا لا اتفاهم مع زوجتي ولكنني لا اتفاهم في النهاية مع سقراط اذا ما مررنا من هناك او . . .

كان يقاطعني آنذاك حول هذه النزعة .

ـ فليكن . ليكن . قلت . . قل لي ماذا اعطاك فن التنجيم؟ هل صحح عيوبك؟ هل ساعدك على التكيف مع العالم؟ هل اعطاك الامان والبهجة؟ لماذا تحك مثل مجنون؟ .

من النظرة الاولى التي القاها علي فهمت بانني قد صفعته صفعة قوية .

ـ انني اعتذر . قلت . لكنك تعرف بانني خشن ومباشر في الغالب لكن هذا لا يعني بأنني انوي التقليل من شأنك او الاستهزاء بك، كنت اود لو اجبتني على اسئلتي، اجبني إذن فورا ايهما اكثر اهمية بالنسبة اليك، الامان والبهجة ام الحكمة؟ واذا كانت الحكمة ستجعلك سعيدا، فما هو اختيارك؟ .

كنت اتوقع منه ان يجيب باننا لا نملك الخيار.

ـ ربما بقيت امريكيا بشكل مرعب . قلت . اي ساذجا ومتفائلا ومغفلا، وربما لم اتعلم خلال السنوات الخصبة في فرنسا سوى تقوية وتعميق طبيعتي الاصلية . لست سوى امريكيا

Twitter: @ketab_n

مئة بالمئة بعيني شخص اوروبي . امريكي يكشف امريكيته مثلما يكشف جرحا . اذا اعجبك هذا او لم يعجبك فانا نتاج هذه الارض الغنية ، شخص يؤمن بالوفرة ويؤمن بالمعجزات . لقد تحملت الحرمانات التي مررت بها لوحدي . ولا الوم شخصا على ما فاتني وعلى اخطائي وآلامي اكثر مما الوم نفسي . ولقد تعلمت خلال مجرى الحياة بعمق ما كنت تتخيل ان بامكانك تعليمي اياه بفن التنجيم . وقد اقترفت جميع الاخطاء التي يمكن ان يرتكبها انسان ، ودفعت الثمن . وها انا اكثر غنى واكثر حكمة وابعد سعادة مما لو كانت الدراسة والتأديب قد علماني تجنب المكائد والاحابيل . ان التنجيم سيمتع ذواتا مستترة اذا لم اخطىء ، الذات المستترة لا تهمني ، وما تهمني هو الانسان الذي يحقق ويبرز هذا الاستتار . من هي هذه الذات المستترة؟ اليست حصيلة كل ما هو انساني؟ اي إلهي بمعنى آخر؟ هل تعتقد باني افتش عن الإله؟ كلا . الألـه موجود . والعالم موجود . والانسان موجود . نحن موجودون . الواقع الكامل تماما هو الله نفسه . . الانسان والعالم وكل ما يتضمن بما في ذلك الاشياء التي لا تسمى . انا مع الواقع ، مع واقع اكبر فاكبر . انا متعصب للواقع اذا شئت» .

«ما هو فن التنجيم؟ ما هي علائقه مع الواقع؟ بالطبع له علائق مع بضعة امور، مثلما لعلم الفلك والتشريح والرياضيات والموسيقى والآدب ، كما ايضا مثلما للبقرات في المرعى والازهار والاعشاب التالفة والزبالة التي ترميها الحياة . من زاوية معينة فان بعض الاشياء ستبدو ذات اهمية اكبر من الاخرى ، بعضها له قيمة ـ كما نقول ـ والاخريات ليس لها . كلها مهمة ولها قيمتها . انظر لأشياء مثل تلك وسأقبل فن تنجيمك» .

ـ ها انت من جديد في واحد من ايامك السيئة .

قال ذلك وهز كتفيه .

ـ اعرف . اجبت . كن صبورا معي ، سيأتي دورك للحديث . . من وقت لوقت اتمرد حتى على ما اظن انه روحي كلها . يجب ان اغضب على شيء ما ، بما في ذلك نفسي . لماذا؟ لانني كنت ابسط الامور . نحن نعرف الكثير وهذا قليل في الحقيقة . العقل يخلق لنا المنغصات وليس الذكاء . لاننا لا نملك من هذا الاخير ما يكفي ابدا . لقد اكتفيت من سماع المختصين ، ومن سماع من لا يملكون سوى وتر واحد في كمانـاتهم . لا انفي شرعية فن التنجيم ، وما اقاومه هو هذه العبودية لوجهة نظر واحدة مهما كانت . هنالك بالطبع قرابات

Twitter: @ketab_n

وتماثلات وتطابقات، ثمة ايقاع سماوي وايقاع ارضي، وسنسبح في الجنون دونها كليهما. اننا نعرف ذلك ونرضى به فلماذا ننساه اذن؟ اريد القول لمَ لا نجعله جزءا حيويا من الوجود، ان نمتصه ونـدمجه ونـوزعـه في مسـامـات جلدنا لكي ينسى، يغير ويستخدم من اجل خدمة الحياة، اشعر بالرعب من البشر الذين يعتقدون بحتمية مرور الاشياء كلها خلال فلتر اللغة الوحيدة التي يعرفونها، سواءا اكانت فن التنجيم او الدين او اليوغا او السياسة او الاقتصاد او اي امر آخر. قضية واحدة تثير فضولي في كوننا، قضية واحدة تريني بوضوح بانه كون إلهي، وهـو ينسجم بسهـولـة مع جميع التفسيرات ولا ينسجم معها. ان كل ما نقوله عنه دقيق وغير دقيق في آن. انه يتضمن حقائقنا وأخطاءنا، ومهما فكرنا به فلن تغير افكارنا منه شيئا. ولكن لنعد الى النقطة التي ابتدأتُ منها. . ان حيوات متنوعة تنفتح امام كل واحد منا وكلنا نرغب بظـروف اكثـر انسجـاما ولطافة، ونريد الاستفادة منها. هل ينبغي علينا والحالة هذه الركض الى الكتب والى المـربـين والى العلم او الـدين او الفلسفة؟ هل نحتاج لمعرفة المزيد والمزيد ـ وهو قليل ـ لنبلغ الشاطىء الآخر؟ الا نستطيع حقا ان نعي الاشياء دون اخضاعها لذلك التعذيب؟».

ـ ان الحياة ليست سوى «مشهد صلب المسيح». قال تيريكان. وان معرفة فن التنجيم لن تغير من الحقيقة المؤلمة هذه شيئا.

ـ والاستثناءات؟ انا متأكد من ان. .

ـ لا توجـد استثنـاءات. تابـع. كل امـريء حتى الاكثـر حنكـة لديـه الآمـه وعذاباته الداخلية، الحياة صراع ازلي لا يبقي لنا سوى الهموم والعذابات، العذابات التي تعطينا قوة وفضائل.

ـ لماذا؟ لأي هدف؟.

ـ لكي نحتمل عبء الحياة بشكل افضل.

ـ هنا رؤية متشائمة، والنتيجة فان هذا يعادل خوض معركة نعرف سلفا باننا سنخسرها.

ـ ولكن يوجد شيء اسمه التضحية.

Twitter: @ketab_n

ـ هل هذا هو الحل؟.
ـ نعم بالنسبة للبعض، وكلا للآخرين، ليس لدينا الخيار.
ـ بالشرف هل يوجد في رأيك ما نسميه الخيار؟.
فكر قبل ان يُجيب.

ـ نعم، اؤ من ان لدينا الخيار احيانا، ولكنه خيار اكثر ضيقا مما نفكر عادة. نحن احرار بالاختيار في حدود مصائرنا. ان التنجيم يمتلك اهمية قصوى في ادراك الظروف التي تشرف على تطورك، الظروف التي يجعلها التنجيم واضحة، عندها سوف لن تختار ما لا يمكن اختياره.

ـ ان حياة الرجال العظام، قلت، تبدو وهي تعلمنا العكس تماما.
ـ انها «تبدو» كما تقول، ولكن اذا ما تفحصنا طوالعهم فاننا سنصعق من صعوبة ان يختاروا شيئا اخر خلاف ما كانوا قد اختاروه حقا. ان ما يختاره المرء هو على الدوام منسجم مع سجيته، في مواجهة مشكلة معينة فان نابليون سيتصرف بطريقة معينة والقديس بول بطريقة اخرى..

ـ نعم، نعم، اعرف هذا كله. فاطعته. واعرف ايضا، او اظن بانني اعرف، بان القديس فرانسوا كان القديس فرانسوا وان القديس بول ـ كان القديس بول وان نابليون كان نابليون، وانهم قد حققوا معرفة عميقة بفن التنجيم. ان نفهم مشكلاتنا ونفحصها بتعمق قليلا فقليلا وان نستبعد ما ليس ضروريا حقا، لا شيء من هذا يهمني بعد. ان النظر الى الحياة باعتبارها عبثا، باعتبارها ساحة للمعارك، باعتبارها مشكلة انما هي طريقة تجزيئية للنظر الى الحياة. اننا نردد بيتين فقط من الشعر اكثر من مجلد ضخم متبحر، لكي نعطي للأشياء حقها علينا في ان نجعلها شعرية. وهكذا فان الوسيدلة الوحيدة بالنسبة لي لكي استمتع بفن التنجيم او بجميع الامور الاخرى هي ان اضعها في زاوية نظر شعرية او موسيقية. اذا قامت هذه الزاوية التنجيمية بانتاج اشارات جديدة، ايقاعات جديدة، ارتعاشات جديدة فلقد ادركت هدفها في رأيي. ان المعرفة تُثقل والحكمة تُحزن، اما الحقيقة فلا علاقة لها بالمعرفة والحكمة. انها خلفهما. ان بعض يقيننا يقف خلف مملكة البراهين».

Twitter: @ketab_n

«يزعم المثل الجاري انه لا بد من توافر شيء من كل شيء لخلق عالم معين! هذا لن يحتمل اذا تعلق بالافكار. لنضع جميع اللوحات، جميع الافكار وجميع الفلسفات سوية. كل هذا الخليط لن يخلق شيئا. ان نتيجة المعارف جميعا ليست سوى التباس اكبر حجما».

«ان الفكر يهرب، والعقل ليس هو الفكر. الفكر نتاج الانا، ولن تهدأ الانا ابدا ولن تقتنع. متى بدأنا نعرف باننا نعرف؟ متى توقفنا عن الاعتقاد باننا سوف نعرف؟ تجيء الحقيقة مع اعادة الحسابات وهي دون كلام. الدماغ ليس هو الفكر، انه طاغية يريد السيطرة على الفكر».

«ما علاقة كل هذا بفن التنجيم؟ لا شيء ربما وكل شيء مع ذلك. بالنسبة لك فانا احد انماط برج الجدي، بالنسبة لمحلل نفساني فانا امر اخر، بالنسبة لماركسي فأنا تجل لمادة الخ. ماذا يعني كل هذا بالنسبة لي؟ وبم تتعلق بي الطرق التي تشتغل بها آلآتكم الفوتغرافية؟. من اجل رؤية شخص في كليته ولمعرفته يجب ان توجد انواع اخرى من الكاميرات. ينبغي توافر عين اكثر موضوعية من عدسة. ينبغي النظر الى الطبيعة الحقيقية للشخصية عبر اضلاع مختلفة تعمينا انعكاساتها اللماعة اللحظة. اننا نتعلم المزيد المزيد ولكننا نعرف الأقل. مجهزون بالأحسن ونرى الأقل عندما نتوقف عن محاولاتنا للنظر ولمعرفة اننا نرى حقا ونعرف حقا. الذي يرى ويعرف ليس بحاجة الى النظارات ولا الى النظريات. ان جميع مجهوداتنا ونضالاتنا تشكل نوعا من الاعتراف ـ وهو وسيلة نستدعيها نحن انفسنا ـ باننا ضعاف وجهال وعمي ودون قدرة. بينما نحن لسنا كذلك.

« لقد توصلت الى الاعتقاد ان فن التنجيم قد ظهر في لحظة من تطور الانسان كان قد اضاع فيها الايمان بنفسه. وبعبارة اخرى في اللحظة التي اضاع فيها اكتماله وكان يفتش عن كينونته. لا تؤرخ الشيزوفرينيا بالأمس او بأول امس، ولكن بعهد بعيد عندما فكك الانسان ما كان عليه الى عشرة الآف جزء، وبستطيع حتى الان ان يموه ثانية تجانسه الكامل. ان الفرق الوحيد بين الانسان آدم والانسان الراهن هو ان الاول كان قد قدر عليه ان يكون في الجنة بينما يتوجب على الثاني ان يخلقها، الامر الذي يقودنا الى مسألة الخيار. بالنسبة للانسان، فالوسيلة الوحيدة للبرهنة على حريته هي ان يقرر انه حر، وهذا غير ممكن الا بادراكه انه قد فقد حريته بسببه هو نفسه. وبالنسبة لي فان هذا يدل على انه يجب اقتلاع السلطات التي

Twitter: @ketab_n

اعطاها الانسان للرب من الرب. كلما تعرف الانسان على الآله في نفسه فانه يغدو اكثر حرية، وكلما اصبح اكثر حرية فانه يفقد القليل من القرارات، وسيغرى بقليل من الخيارات. من جهة اخرى فان كلمة «الحرية» هنا ليست في محلها. سيكون «اليقين» آنئذ او العصمة مناسبتين. لا توجد في الحقيقة ابدا سوى طريقة واحدة للتصرف ازاء اية حالة معطاة من الحالات. لا توجد اثنتان، او ثلاث. الحرية تتضمن خيارا واحدا وهو لا يوجد الا عندما نعي عدم قدرتنا. ان المسار المطلع ليس بحاجة للفكرة، لانه الشيء ذاته مع فكرته وعمله.

«يبدو لي بانني قد ابتعدت عن موضوعي، ولكن ليس دون التماس معه. اتكلم بلغة اخرى فحسب. اقول ان السلام والبهجة في متناول الجميع، وان جوهر وجودنا يشابه الاله، اقول انه لا توجد حدود لا في الفكر ولا في العمل. اقول بأننا جميعا واحد ولسنا متعددين. اقول بأننا هنا ولن نستطيع البتة ان نكون في مكان آخر. لا اذا ما نفينا ذلك. اقول ان رؤية الاختلافات تخلق الاختلافات. ان برج الجدي ليس برج الجدي الا بالنسبة لمنجم آخر، وان فن التنجيم يستفيد قليلا جدا من الشمس والقمر في حين توجد ملايين اخرى من الكواكب، من الاكوان الاخرى، من النجوم والمذنبات والنيازل الاخرى. هل يستطاع حساب مساحة الفضاء او حجمه او اشعاعاته؟ لا يشكل ذلك كلا متداخلا؟ من سيجرؤ ان يقول اين تبدأ التأثيرات فعلها واين تتوقف؟ من يجرؤ ان يقول ما هو المهم وما هو غير المهم فيه؟ من يمتلك هذا الكون؟ من يقوده؟ روح من تحركه؟ واذا ما احتجنا الى مساعدة والى استبشارة والى توجيهات، فلماذا لا نذهب الى المصدر مباشرة؟ ولماذا لا نسعى وراء هذه الاستشارات وتلك التوجيهات لكي نجعل الاشياء مريحة اكثر ونغدو نحن انفسنا اكثر فعالية ولكي ندرك اهدافنا بشكل افضل؟ لماذا تكون الاشياء معقدة وصعبة وغامضة وقليلة الاقناع الى هذا الحد؟ لاننا نقيم في وسط الكون ولاننا نرغب ان تجري كل شيء حسب هوانا، ما هو مسموح لنا باكتشافه هو ما يريده هذا المسمى الحياة والرب والروح او ايما اسم آخر. اذا كان هدف فن التنجيم يقع ها هنا، حسنا، انا موافق».

«شيء واحد اود قوله لأنتهي اخيرا من الموضوع، انه يتعلق هذه المرة بصعوباتنا الدائمة في علاقتنا مع الآخرين، خصوصا الذين يبدو بانهم يشكلون مشكلتنا الاولى. ان وجهة نظري هي انه اذا توجب علينا ان نحسب الاختلافات والتباينات بين هذا وذاك لكي نتفاهم

Twitter: @ketab_n

فلن نحصل على معرفة كافية لتقوم علاقاتنا دون صعوبة وبطريقة مقنعة. اذا ما اردنا الوصول الى نجاح بذلك فعلينا تذليل العقبات وصولا الى الكنه المكين لدى الناس، وصولا الى الجوهر الانساني المشترك بيننا جميعا. هذا ليس صعبا ولا يتطلب كفاءة خاصة. لا لعالم نفساني ولا لعراف. ولا حاجة له بابراج فن التنجيم وتعقيدات ردود افعالها ازاء هذا وذاك. ليس ثمة الا وسيلة واحدة بسيطة ومباشرة ومشتركة بين انماط جميع الابراج، تلك هي ممارسة الثقة والصدق».

«لقد امضينا حيواتنا بمحاولة تلافي الجروح والاهانات التي يجهد جيراننا بتوجيهها الينا. هذا زمن معكر للصفو بخسارات صافية. اذا وافقنا على نسيان خوفنا واحكامنا المسبقة فحسب فسيغدو اذن سهلا. ان نكون على صلة بالقاتل كما بالقديس. عندما ارى الناس وهم ينحنون على بطاقات التنجيم في محاولة للهروب من الامراض والفقر والشر او اي امر سواها، فان مصطلحات فن التنجيم تلتغي في رأسي. يصير لدي شعور باني اشاهد محاولات بائسة لاستغلال النجوم. نتحدث عن القدر كما لو اننا نتحدث عن عقوبة مفروضة متناسين باننا نحن من نخلق مصائرنا كل يوم. خلال القدر اسمع للتعاسات التي تنقض علينا والتي هي تأثيرات اسباب اقل سرية مما ندعي. ان غالبية لعناتنا تنتسب الى سلوكنا مباشرة. انها ليست دمارات ناجمة عن زلازل الكرة الارضية ولا عن البراكين او الزوابع او اصطخاب امواج البحر، ان ما يجعل الانسان يتألم هي آثامه هو وحماقاته وجهله وعدم احترامه للقوانين الطبيعية. ان بمقدوره ان يلغي الحرب والمرض والشيخوخة وربما الموت ذاته. ليس ضروريا ان يعيش بالفقر والشر والجهالة كما ليس ضروريا ان يعيش بحالة منافسة وتزاحم. ان شروط هروبه من ذلك قريبة اليه، لكنه سوف لن يحققها طالما سينشغل تماما بمصيره الذاتي الخاص. هل نتخيل طبيبا يرفض الحضور بذريعة خطر العدوى والتلوث؟ وكما قال الكتاب المقدس فنحن اجزاء من جسد واحد، ونحن في حرب ضد بعضنا. ان جسدنا الفيزيقي يمتلك حكمة تنقص من يسكن فيه. نحن نشرع قوانين خرقاء. ليس هناك ايما سر في المرض او في الجريمة والحرب وألف ألف من الاشياء الاخرى التي ترهقنا. يجب ان نعيش ببساطة وبحكمة. ان ننسى ونعفو ونتنازل. كيف ستكون لدي حاجة لدراسة طالعي لأفهم حكمة تصرف بسيط الى هذه الدرجة؟ هل ثمة من حاجة لأعيش في الأمس لكي استمتع بالغد؟ الست بقادر على ان انس الماضي الآن لأعيش حياة جيدة قريبا اذا رغبت ان افعل حقا؟.

Twitter: @ketab_n

السلام والبهجة، يكفيني ان اطلبهما يوما بعد آخر. الصيغة وحدها تكفيني. كلا ليس هذا ايضا بالحقيقة اليوم، انها فحسب «هذا اليوم الجميل»، اليس هذا عنوانا لكتاب «ساندرار»؟ حاول اذن ان تجد لي احسن من هذا اذا استطعت».

لم الق عليه هذه الخطبة دفعة واحدة وليس بنفس الكلمات، وربما كنت قد تخيلت بانني افعل. هذا قليل الاهمية. انني اقول الآن ما قلت كما لو انني كنت قادرا على قوله آنذاك. وقد فكرت به اكثر من مرة. خذوه كما يستحق.

●

عندما هطل المطر القوي الأول لم يتأخر تير يكان عن الاكتئاب علينا ان نعرف ثانية ان حجيرته كانت ضيقة وكان الماء يرشح من السقف والنوافذ، وكانت حشرات «حمار القبان» وحشرات اخرى تشاركه المكان، كان يهبط من سريره في اوقات كثيرة ليتدفأ. صار يستخدم مدفأة من المازوت كريه الرائحة وكانت تستهلك الاوكسجين القليل المتبقي في الغرفة بعد ان يحكم سد جميع المنافذ والثقوب، وبعد ان يسد الباب بخيش عتيق ويغلق باحكام النوافذ.. الخ. علينا ان نعرف كذلك ان ذلك الشتاء كان قد ادخر لنا اكثر من حصتنا المعتادة من المطر. وكانت العواصف في هيجان مطرد مستمرة اياما ولياليا. وكان الشيطان المسكين معتزلا طيلة اليوم، عصبيا، متضايقا، وهو يشعر اما بحرارة شديدة او ببرودة قاتلة. كان يحك، ويحك عاجزا عن اتقاء آلاف الفظاعات التي كان ينقلها الاثير لانه كان مشغولا بالتشكي من تلك الدويبات الشنيعة التي تدب وتتسلق في كل مكان بينما كانت المنافذ كلها محكمة الاغلاف، مقفولة ومنجرة. سوف لن انسى ابدا هيئته المستنجدة الذاهلة عندما كان يناديني ـ بعد الظهيرة ـ من غرفته لكي اعالج المصباح.

ـ انظر. قال لي وهو يقدح عود الكبريت محاولا تثبيت اللهيب في داخل المصباح. انظر، انه ينطفىء اثناء كل خفقة هواء! يجب ان نقول ان تلك المصابيح كانت ذات تقلبات ونزوات كما يعرف جميع سكان الريف، اذا ما جرى تشغيلها فيجب المحافظة عليها على الوجه الأكمل. ولا شيء سوى كشط الفتيل هو العملية الناجعة لذلك. وعلى حسب الاصول فقد شرحت لتير يكان خمسين الف مرة هذه الفكرة وعندما عدت اليه وجدت المصباح وقد علاه الدخان ودون كبير اضاءة. من جهة اخرى كنت اعرف بان هذه المصابيح الحقيرة كانت تدفعه للهمهمة مما كان يمنعه من المحافظة عليها.

Twitter: @ketab_n

عندما قدحت عود الكبريت واقتربت من الفتيل كنت على وشك ان اقول له: «ها انت ترى... انه سهل.. لا شيء سوى..» ولدهشتي فان الفتيل رفض الاشتعال. قدحت عودا آخر، ثم آخر. اشعلت شمعة ورأيت كيف تراقص اللهب للحظة ثم ضمر، عندها فهمت ما حدث.

نظر الي بعينيه المدورتين. من اجل الحصول على الهواء توجب عليه ان يحافظ على ان يكون الشباك مفتوحا، الامر الذي يسمح بدخول المطر والريح: «هذا مزعج!» صرخ، وكان على حق. بل كان أسوأ من مزعج، لقد خيل الي انني اراه ممددا، صباح يوم رائع على سريره.. مختنقا.

وحدث انه اعد نظاما يسمح بدخول الهواء الضروري فحسب وبدقة. وتوصل بنظام من الكلابات الموجلة على مسافات متباينة في اعلى الفتحات الى الحصول على المزيد او القليل من الهواء حسب ما كان يريد، متحاشيا ان يفتح شباكا او ان ينتزع خيشه من تحت الباب او يسقط الملاط الذي حشابه كوى وثقوب الحيطان. اما تلك المصابيح العاهرات فقد قرر التخلص منها واستخدام الشموع. كل ذلك خلق طقسا جنائزيا داخل الغرفة بما في ذلك مزاجه المرضي.

طيلة الوقت كان جربه يستمر بتعذيبه. في كل مرة ينزل فيها للأكل كان يرفع اكمامه وأرجل بنطلونه ليرينا كيف يفتك الداء به، كان لحمه جرحا متقيحا. لو كنت مكانه لاطلقت رصاصة على رأسي. لقد صار امرا ملحا ان نقوم بعمل شيء ما قبل ان نتبلد جميعا. كنا لحظتئذ نستعين بالضمادات القديمة التقليدية.. دون نتيجة تذكر. وكوسيلة يائسة اخيرة فقد رجوت صديقا كان يسكن على مبعدة بضعة خمسمائة كيلومترا منا ان يقوم برحلة مكرسة خصيصا لنا. كان ذا خبرة معتبرة بالطب العام والتشريح والسايكولوجيا، بل انه كان يتكلم الفرنسية بشكل حسن. كان شخصا استثنائيا ـ من جهة ثانية ـ وصديقا صريحا وكريما وكنت على يقين من انه اذا لم يستطع معالجة الشر فانه سيقدم نصيحة مهمة بشأنه.

جاء اذن، قام بفحص تير يكان بدقة من اقدامه وحتى رأسه. وكان يتكلم معه بعدئذ دون الانتباه اقل انتباه الى الجروح، بل دون ان يشير ادنى اشارة اليها. دار الحوار حول

Twitter: @ketab_n

مختلف انواع الموضوعات ما عدا قضية الجرب. وبدا كما لو انه نسي سبب زيارته الاساسي. ومن هنا، من هنا بالضبط حاول تيريكان سحبه الى موضوع زيارته، لكن الصديق كان ينجح كل مرة بتحويل انتباهه وتركيزه على موضوع آخر. وكان يستعد للمغادرة اخيرا بعد ان حرر وصفة وتركها تحت انف تيريكان. رافقته حتى سيارته متلهفا لمعرفة فكرته الجوهرية.

ـ لا يوجد ما يمكن عمله له. قال. عندما سيتوقف عن التفكير به فانه سيختفي.

ـ ومن الان وحتى ذلك الوقت؟.

ـ ليأخذ الاقراص.

ـ هل ستخفف عنه حقا؟.

ـ الامر يتوقف عليه، ليس هناك ما يمكن ان يؤذيه الا اذا آمن بذلك. حلت فترة صمت ثقيل بيننا ثم بدا وهو يقرر ويقول:

ـ هل تريد رأيي بأمانة.

ـ اعتقد بالفعل.

ـ تخلصوا من هذا الشخص!.

ـ ماذا تعني؟.

ـ ما قلت بالضبط. كأن في بيتك شخصا ابرص.

لا بد وأنني قد بدوت مدهوشا امامه بشكل قذر.

ـ انه بسيط جدا. كان يستمر. انه لا يستطيع الشفاء، وما يبحث عنه هو اللطافة والرعاية. انه ليس رجلا. انه طفل، طفل مدلل.

صمت ثانية. ثم قال:

ـ وفي جميع الاحوال فلا تستشط غيظا اذا ما هدد بالانتحار. من المحتمل ان يحاول اثارتك عندما يرى لا جدوى كل ما يقوم به، ولكنه لن يقتل نفسه، انه يحبها كثيرا.

ـ ارى ذلك. قلت. ولهذا نحن هنا.. يا إلهي ما الذي سأروي اليه؟.

ـ هذا يا صديقي هو عملك انت.

Twitter: @ketab_n

وابتدأ بتشغيل محرك سيارته.

ـ آه.. قلت: اعتقد باني سأخذ اقراصك انا، على كل حال شكرا الف مرة.

كان تير يكـان مستلقيـا ينتظر رجوعي. كان يحاول دون جدوى ان يفك الغاز الوصفة. كانت الكتابة رديئة. وببضعة كلمات كنت اشرح له ان مرضه من طراز نفساني.

ـ اول غبي سيأتي سيعـرف هذا!. خرجت الجملة هكـذا من فمـه. ثم قال دون ان يسترجع انفاسه: هل هو طيب حقا؟.

ـ ومشهور. اجبته.

ـ هذا مضحك. قال. انه يتكلم مثل ابله.

ـ اوه!.

ـ لقد سألني فيما اذا كنت امارس العادة السرية.

ـ ثم....؟

ـ وفيـما اذا كنت احب النسـاء، كما الـرجـال، واذا لم اكن مدمنا قط، واذا كنت اؤ من بالانبعاث.. واذا.. واذا.. واذا.. انه مجنون.

ولدقائق منعه الغضب من ان يتلفظ بوضوح بكلمة واحدة. ثم كان يهمس كما لو لنفسه بنبرة استنجاد كامل:

ـ يا إلهي.. يا إلهي، ما الذي استطيع ان افعل؟ كم انا وحيد.. وحيد.

ـ هيا.. هيا.. قلت له. اهدأ! هناك اشياء اسوأ من الجرب!.

ـ مثـل ماذا على سبيـل المثـال؟. سألني وكـان جوابـه السريع مباغتا لي حتى انني كنت متحيرا «مثل ماذا على سبيل المثال».

كرر الجملة ثانية مستمرا:

ـ من نمط نفساني! ياي! لا بد انه اعتبرني ابله. اي بلد! اي بلد! ليس من انسانية! ليس من تفهم! ليس من ذكاء! آه! لو استطيع الموت فقط.. الموت هذا المساء!.

لم اجب.

ـ اتمنى يا عزيزي ميللر معاناة ليست مثل هذه المعاناة! لم تكن الحرب شيئا يذكر ازاء هذا.

Twitter: @ketab_n

وسقطت نظراته على الوصفة فجأة. تناولها وطواها مثل كرة ورماها الى ارضية الحجرة.

ـ اقـراص!.. انـا تير يكـان.. يعطيني اقـراص! تقـوا! وبصق على الارضيـة: «ان صديقك خبيث، مشعوذ وحيال».

وهكذا انتهت محاولتنا الاولى لمساعدته في الخروج من ورطته. مضى اسبوع، وفي احد الايام.. من كان يظهر امامنا؟ انه الصديق القديم جيلبير. آه! قلت لنفسي، ها هنا اخيرا شخص يتكلم الفرنسية! ويعشق الادب الفرنسي، اية وليمة لتير يكان!.

ولم اواجـه ايـة صعـوبـة في وضعهـا داخل نقاش بمساعدة قنينة من النبيذ. بعد بضعة دقائق كانا يتحدثان عن بودلير وفيون وفولتير وجيد وكوكتو، عن الباليه الروسي وكتاب آبوروا وما تلاها. وعندما رأيت الامور كانت تسير على خير ما يرام سحبت نفسي بخفة على أمل ان يرفع جيلبير الذي عرف هو ايضا تعاسات ايوب معنويات الآخر او على الاقل ان يسكره بشكـل جيـد. وبعـد حوالي السـاعة من ذلك كنت اتسكع مع الكلب، عندها رأيت جيلبير يقبل بسيارته. وقف امامي..

ـ كيف، هل تغادر الآن؟ قلت، لم يكن من عاداته الانصراف قبل ان يشفط القنينة الاخيرة.

ـ لقد ارهقني. اجاب. اي غبي هذا!.

ـ من؟ تير يكان؟.

ـ بالضبط.

ـ ماذا حدث؟.

كان يبدو مشمئزا تماما في اجاباته جميعها.

ـ هل تعرف ماذا سأفعل به لو كنت مكانك يا صديقي؟. قال بهيئة شريرة.

ـ كلا. ماذا؟.

ـ سألقي به من اعلى جرف بحري.

ـ من السهل قول هذا من القيام به.

---

(١) آبوروا: هو كتاب لألفريد جاري (١٨٧٣ ـ ١٩٠٧).

Twitter: @ketab_n

ـ حاول! انه الحل الافضل.

وضغط على دواسة البنزين. لقد صدمتني كلماته. خصوصا وان من غير المتوقع من طرفه التحدث عن احد. كان رجلا طيبا للغاية ولطيفا، ومنشغلا دائما بتقديم الخدمات للآخرين. وكان قد شهد هو نفسه التعاسات والفظاظات. آه! لكنه لم يكن ليحتاج الى طويل وقت ليكتشف تير يكان!.

خلال ذلك الوقت فان صديقي الحميم ليليك كان قد استأجر كوخا على مبعدة بضعة اميال منا. كان يجهد نفسه لان يكون لطيفا مع تير يكان، وهذا الاخير كان يحبه ويثق به، وكان العكس مدهشا من جهة اخرى، فما كان ليليك ليتوقف عن تقديم المساعدات له وهو يجلس الساعات الطوال مستمعا اليه وهو يروي مصائبه. وقد اخبر ني ليليك بان تير يكان يعتقد انني لا امنحه المزيد من الاهتمام.

ـ انت لا تهتم على الاطلاق بانشغالاته. قال لي.

ـ انشغالاته؟ ماذا يعني هذا؟ هل يشتغل على شيء.

ـ اعتقد انه يكتب مذكراته.

ـ ممتع جدا. قلت. يجب ان اراها ذات يوم.

ـ وبالمناسبة. قال ليليك. هل رأيت رسوماته؟.

ـ اي رسومات؟.

ـ يا الهي القدير! الم يركها؟ لديه مجموعة منها على ورق مقوى، رسومات خلاعية، من حسن حظك ان رجال الجمارك لم يجدوها معه. قال ذلك مع ابتسامة.

ـ هل هي جيدة؟.

ـ نعم ولا. في جميع الاحوال ليست من اجل صبيان المذبح في الكنيسة!.

بعد ايام اخرى من هذا الحديث وصل واحد من اصدقائي القدامى دون سابق انذار. انه ليون شاموري. وصل مثقلا بالهدايا كعادته، خاصة بالمأكولات والمشروبات. هذه المرة فان تير يكان قد ابصر بعيني نسر اكثر سعة من المعتاد.

ـ هذا لا يصدق. همس وجرني الى زاوية قائلا: انه مليونير كما اظن؟.

Twitter: @ketab_n

ـ كلا، انه ببساطة مدير التصوير في «فوكس فيلم»، انه هو من يفوز بالاوسكارات كلها. خسارة ان لا تفهم ما يقول. واضفت باني لا اعرف شخصا واحدا في امريكا كلها يمتلك قدرته على التحدث كما لو انه لا يكشف فضيحة واحدة!.

عندما رأى ليون اجتماعنا التآمري اقبل مسرعا.

ـ عن اي شيء تتحدثان؟ من هو هذا الشخص؟ واحد من اصحاب مونتبارناس؟ انه لا يتكلم الانكليزية؟ ماذا يعمل هنا؟ اراهن بانه يقود على حساب. اعطه كأسا، له سيماء ضجر.. اوحزين. خذ. قل له بان يجرب واحدة من هاته. قال لي وهو يخرج قبضة من السجائر من جيب الصدر: «القطعة لا تساوي سوى دولار، ربما سينور هذا صديقك!». واشار لتير يكان باشارات صغيرة برأسه ليفهم ان السجائر له، ثم رمى سيجار الهافانا نصف المستخدم لينطفىء واشعل واحدا جديدا آخر. كان طول السيجار قدم تقريبا وكان ضخما مثل أرجل الكراسي يتضوع بعبير فخم. فكرت ان «هذا معلوم» بالنسبة لسعرها: «قل له ان لا يتعب نفسه فانا لا افهم الفرنسية» قال ليون وقد انزعج بعض الشيء بسبب الشكر ان المستفيض الذي ظل تير يكان يقدمه. ثم فك ليون في خضم حديثه المتوالي حزمة كشفت عن جبنة غضة وعن سجق وسلمون. ثم استأنف الحديث: «قل له باننا نحب الاكل والشرب، وانه سيدخن سيجاره بعد قليل، هيه! اين وضعت النبيذ الذي جلبته؟ كلا. انتظر لحظة، عندي قنينة من ويسكي (هيغ وهيغ) في السيارة سوف نعطيها له، اراهن ان هذا اللوطي المسكين لم يذق كأسا من الويسكي طيلة حياته، اجب، ماذا يجري لصاحبك؟ لماذا لا يضحك ابدا». استمر على هذا المنوال، يتلفظ بحماقاته خبط عشواء، فاتحا من جديد حزمة اخرى، ثم اخذ قطعة من خبز الذرة ومسحها بزبدة حلوة، ملتقطا زيتونة، متذوقا صبرا ثم قطعة مخلل، قليلا من هذا، قليلا من ذاك، وقد كشف في ذات الوقت عن علبة الملبس التي جاء بها للصغيرة فال، مع ثوب رائع وقلادة و...

ـ خذ هذا. انه لك ايها الحمار الكبير. قال راميا لي بعلبة من السجائر ذات الطول الباذخ. عندي واحدة اخرى لك في السيارة. نسيت ان اسألك، كيف تسير شؤونك؟ الا تربح نقودا بعد... هه؟ آ.. انت و«بوفانو» مجرد يتيمين، انت محظوظ بصديق مثلي.. يشتغل ليكسب قوته.. هه؟.

Twitter: @ketab_n

خلال هذا الوقت كان ليليك يغدو ويروح وهو يفرغ ما كان في السيارة. كنا ننزع سدارة الـ (هيغ وهيغ) ثم نفتح نبيذا فاخرا من (بوردو) من اجل تير يكان ومن اجلنا، كان ينظر باعجاب الى قناني النبيذ (برنو) و (دير شارتر) التي جاء بها شاموري ايضا. كان الجو قد اسود لحظتئذ بسبب الدخان وتغطت الارض بالاوراق والخيوط.

ـ هل يعمل رشاشك دوما؟. سأل ليون وهو يخلع قميصه الحريري. يجب ان آخذ دوشا. لم انم منذ ستة وثلاثين ساعة. يا إلهي كما انا فرح للفرار بضعة ساعات! بالمناسبة هل يمكن ان تتدبر لي غرفة هذه الليلة؟ ربما ليومين؟ علي ان اتكلم معك. علينا ان نتدبر لك نقودا بوقت قريب، لا امزح، انت لا تنوي البقاء شحاذا حياتك كلها، هه؟ اسكت، اعرف ما ستقول.. بالمناسبة اين رسومك المائية، اخرجها! انت تعرفني، انا اخاطر ان اشتري منك نصف دزينة منها قبل ذهابي، شرط ان يوجد فيها شيء جيد!». وفجأة لمح ليون تير يكان وهو يمتص عقب سيجارة. «مجنون هذا الشخص» صرخ «لماذا يدخن هذا التبغ المقزز؟ ماذا يفعل اذن بالسيجار الفاخر الذي جلبته اليه». ثم كان تير يكان يشرح محمرا بانه يحتفظ بالسيجار لوقت آخر، وانه يجده جيدا جدا حتى انه لا يمكنه تدخينه فورا. كان يريد تدليل السيجار قبل تدخينه.

ـ كم هو غبي! زعق ليون. قل له بانه الان في امريكا! واننا لا نشغل بالنا بالغد هنا! قل له بانه عندما سيدخن هذا فسوف ارسل اليه علبة من سجائر «لوس انجلوس». ثم استدار نحوي واضاف وهو يخفض صوته: «ماذا يجري له؟ هل كان يتضور جوعا هناك؟ آه! خراء عليه! اسمع، سأروي لك حكاية سمعتها الليلة الماضية وسترجمها له لنرى فيما اذا كان سينطق اخيرا!». كانت زوجتي تحاول عبثا ترتيب الطاولة، شرع ليون حينئذ برواية قصته الصغيرة، قصة وسخة، ضرط ليليك على اثرها مثل فحل الخيل، وكان ليون يقطع لنفسه اثناء الحكي قطعة اخرى من الخبز، يصب كأسا، يخلع حذائه وجواربه، يلتقط زيتونة.. تير يكان فاغر الفم، عيونه فقط تشتغل. كان هذا بالنسبة اليه نموذجا لانسانية غير معروفة بعد. نمط الامريكي الحقيقي، اليس كذلك! تمطق بعد ان جرع من البوردو، وكان سمك السلمون يثير فضوله، انه لم يره ابدا ولم يذقه كما لم يتذوق خبز الذرة. مشهور! ممتاز! ممتاز!. كان ليليك يضحك حتى طفرت دموعه على خديه. انها قصة جيدة. مقززة وعصية على الترجمة.

Twitter: @ketab_n

ـ ثم ماذا؟ . سأل ليون . ماذا يضايقكم؟ الا يتحدثون بمثل هذه اللغة في بلده؟ ولاحظ بان تير يكـان كان منهمكـا بالتقـاط اللحم من الصحـون وبـارتشـاف النبيذ غير متوقف عن امتصاص سيجارة مثل اطفائي .

ـ طيب! طيب! لننس القصة شرط ان يأكل بشهية . هذا يكفي ، ماذا يعمل ، الا تقول لي؟ .

ـ انه منجم من بين اشياء كثيرة اخرى . قلت .

ـ هكـذا اذن! اي انـه شخص غير قادر على تمييـز ثقب مؤخـرتـه من ثقـوب الحـائط؟ التنجيم! من يهتم بهذا الخراء الان؟ قل له بان هذا الشيء قد التغى! انتظر دقيقة! اعطه اولا تاريخ ولادتي لنرى ماذا سيستخرج منه .

كنت اعتق تير يكـاني الـذي كان يتردد ان يفعـل والـذي كان يريد في البدء مراقبة ليون لوقت اطول ، اذ لم يكن ضد القيام بالمحاولة .

ـ ماذا يقول؟ .

ـ انـه يريـد ان يأكـل اولا بشهيـة ، ولكنه مقتنع بانك نمط استثنائي . قلت مضيفا ذلك لارطب الجو.

ـ ها هنا كلام سديد! وكيف لا اكون نمطا استثنائيا! اي شخص آخر بمكاني سيكون غبيـا! قل له بان عنـدي مزحـات ، هل تريد؟ . كان يخاطب تير يكان مباشرة : كيف وجدت النبيذ اذن؟ . . النبيذ الاحمر؟ طيب . . هه؟ .

ـ مذهل . قال تير يكان دون ان يتوهم الاوهام بما كان يوجد تحت انفه .

ـ تقول انه لذيذ ايها القذر. قال ليون . انا من اختاره وانا اعرف اختيار الطيب ، ثق بي! .

كان يتأمل تير يكان كما لو كان عجل بحر بنيه ، وقال وهو يلقي نظرة توبيخ نحوي :

ـ اراهن انـه يحب اكثـر من اي شيء آخـر الجلوس على مؤخرته طيلة اليوم . ادفعه الى

Twitter: @ketab_n

شغـل شاغـل يا صديقي، دعـه يغـرق الحـديقة بالماء، يزرع الخضروات، يقتلع الاعشاب الزائدة، اعرف هؤلاء القذرين، انهم جميعا سواء، يجب معاملتهم كما اقول:

كانت زوجتي التي لم ترغب بابعاد تير يكان عن الجلسة قد استاءت، فقالت لليون لتغير مجرى الحديث:

ـ اطلب منه ان يريك ما لديه في غرفته، ذلك يمتعك.

ـ هذا امر حسن. قال ليليك. انه ليس من اختصاصك يا ليون .

ـ عن ماذا، عن اي شيء تدور هذه النكتة؟ هيا اكشفوا سركم! .

شرحنا له بأي شيء تتعلق. لكن الامور المثيرة للفضول لم تبد ممتعة له.

ـ هوليوود مليئة بمثل هذه الوساخات، ماذا تتوقعون مني ان افعل، ان امارس العادة السرية؟.

كانت الظهـيرة تتقـدم. انسحب تير يكان الى حجرته. وذهب ليون ليتفقد سيارته وقد تذكر فجأة بانه قد قام بجلب بعض الالعاب لفال ووضعها في الصندوق الخلفي للسيارة.

ـ اين بوفارنو في هذا الوقت؟ سأل وهو ينبش الصندوق.

ـ لقد غادر الى الهند كما اظن.

ـ ليرى نهرو، اراهن! . قال مازحا. الطريقة التي يتدبر بها هذا الشاب اموره دون فلس في الجيب يثير استغرابي، بالمناسبة وانت، كيف تتدبر وضعك في الوقت الراهن، من ناحية النقـود؟. ها هو الان يفتش في جيـوبـه ويستخـرج منهـا حزمـة من الاوراق النقـديـة الخضر المربوطة بمطاطة، ويستل بعضا منها.

ـ هاك، خذ، هذا لك. قال وهـو يلصقهـا بيـدي، علي انـا ان اسلفـك النقـود قبل ان اخـرج. هل لديـك شيء جيـد للقـراءة.. سألني فجأة: «مثل كتاب «جيونو» الذي اعرتني اياه، هل تتذكر؟ وهذا الرجل ساندرار الذي تدمرني بشأنه كل مرة؟ الم يترجم له شيء جديد ايضـا؟». ورمى الى الارض بسيجـاره الجـديـد نصف المـدخن وسحقه بعقب قدمه مشعلا آخـر: «اذا اعتقـدت باني لا القي نظرة الى كتاب فانت مخدوع. انني اقرأ اكداسا... ذات

Twitter: @ketab_n

يوم ستقرأ لي سيناريو وسأربح كومة من النقود. .» واشار بابهامه صوب حجيرة تير يكان: «هل يدفعك ذلك الشخص لانفاق الكثير من المال؟ انت ملك الحمقى! كيف سقطت في هذا الشرك؟». قلت له بأنها حكاية طويلة وسأرويها له مرة اخرى. «ماذا تعني رسوماته؟ علي ان اراها، اظن انه يريد بيعها؟ سأشتري منه واحدة. . انتظر. علي الذهاب الى المرحاض اولا». عندما عاد ثانية كان السيجار لما يزل في فمه وكان لون بشرته ومزاجه بلون الورد: «لا شيء افضل من تغوط مريح». قال بسذاجة. . «لنذهب الان لزيارة هذا الـ (بامبو) ذي العين الحزينة. . اذهب للبحث عن ليليك لو سمحت ليعطيني رأيه لكي لا يضحك احد علي».

عندما دخلنا الى الحجيرة بدأ ليون بتشمم الهواء المقزز «بحق السماء» صرخ: «قل له ان يفتح شباكا».

ـ لا نستطيع يا ليون، انه يخشى تيار الهواء.

ـ غير مدهش من جانبه. . طيب! قل له ان يخرج رسوماته بسرعة، ان يعجل هه! اذا بقيت عشر دقائق اخرى فسأتقيأ.

ذهب تير يكان للتفتيش عن حقيبته الجلدية، ووضعها باحتراس امامه، ثم بهدوء شديد اشعل «كلواز ازرق».

ـ اطلب منه ان يخرجها. كان ليون يتوسل وقد اخرج من جيبه علبة سجائر «جيستر فيلد» واعطى واحدة لتير يكان. رفض تير يكان اخذها زاعما انه لا يحتمل السجائر الامريكية.

ـ انه مجنون. قال ليون وهو يمد اليه سيجارا طويلا. هاك. خذ.

رفض تير يكان ثانية ولوح بسيجارته الفرنسية الغبية.

ـ افضل هذه.

ـ طيب، لير ينا! قال ليون. ليعجل، لن نفقد فترة ما بعد الظهيرة داخل هذا القبر.

لكن تير يكان لم يكن رجل زحمة. كانت عنده طريقته الخاصة بتقديم اعماله الفنية. انه لا يسمح لكائن من كان ان يمس رسوماته. استدار ببطء بعد ان وضعها امامه، وقام بتقليبها

Twitter: @ketab_n

صفحة اثر صقحة، كما لو ان الامر كان يتعلق ببرديات نادرة هشة لا تمس الا بملقط. ومن وقت لاخر كان يخرج من جيب معطفه منديلا حريريا يجفف به عرق يديه. كان يرى رسوماته للمرة الاولى. علي ان اعترف بانها تترك طعما مقرفا في الفم. لقد كانت منحرفة وسادية ومدنسة. اطفال مغتصبون من قبل وحوش شبقة، عذراوات وهن يمارسن شتى ضروب الفعل الجنسي المحرم، راهبات يقمن فافتضاض بكاراتهن بايديهن بأشياء مقدسة، جلد بالسوط، تعذيبات جسدية قروسطية، اوصال مقطعة، تهتكات آكلة البراز. . وما سواها. منجزات يد شفافة، حساسة ومختصة بتضخيم العناصر المقززة للموضوع المعالج.

للمرة الاولى يفغر ليون فاه. التفت صوب ليليك بنظرة متساءلة ثم طلب ان يرى الرسوم ثانية.

ـ هذا اللوطي هل يعرف الرسم، كلا؟ قال اخيرا. اشار ليليك نحو بضعة رسوم ذات معالجة بدت له استثنائية.

ـ اخذها. قال ليون. بكم؟.

قال تير يكان ثمنه، وهو ثمن صعب حتى بالنسبة لزبون امريكي.

ـ قل له ان يغلفها. قال ليون. انها لا تساوي ذلك ولكنني آخذها. اعرف من سيعطي ذراعه الايمن من اجلها!.

واخرج حزمة الاوراق النقدية وعد بسرعة ثم عدل عن رأيه ودسها من جديد في جيبه.

ـ كلا، احتاج الى سيولة. قال. قل له بانني سأبعث اليه بشيك حال رجوعي اذا ما وثق بي.

بدا تير يكان وهو يغير رأيه مدعيا انه لا يقدر على بيعها منفصلة، كلها اولا شيء. ووضع ثمنا لها كلها. ثمنا ـ ضربة مطرقة.

ـ انه مجنون. زعق ليون. اذا كان الامر هكذا فقل له ان يضعها في مؤخرته!.

وشرحت لتير يكان بان ليون يحتاج الى وقت من التفكير.

Twitter: @ketab_n

ـ حسنـا، قال تير يكـان بالانكليـزية مكشرا امامي عن ابتسامة موافقة. وأظن بانه كان يفكر بان المسألة في جيبه، الم يضمن كل سبل النجاح؟. «حسنا» كرر بالانكليزية ثانية بينما كنا نستأذن للانصراف.

خلال هبوطنا الممر كان ليون لا يزال ساخطا.

ـ اذا امتلك هذا القـذر قليـلا من العقـل فسيعطيني الكـارتـون كله لأعـرضـه للناس، وسيمكنني ان احصل على ضعف ما يطلب، كما ان رسوماته عرضة للتوسخ، اي متحذلق؟ ولكزني بضربة كوع بين اضلاعي.

ـ كيف امكنه ان يوسخ تلك الوساخات. ستكون لها مع ذلك شأن خاص!.

وفي نهاية الممر توقف لحظة واخذني من ذراعي.

ـ هل تعرف ما به.. هذا الشخص؟ انه مريض واشار الى جمجمته بطرف سبابته.

ـ عندما تتضايق منه. اضاف. ستقوم بعمل جيد لو طهرت المكان بعد رحيله! كنا على مائـدة العشـاء بعـد ايـام من ذلـك. وكـان النقـاش قد وصـل الى موضوع الحرب، لم يكن تير يكـان ينتظـر ـ كالعـادة ـ الا هذه المنـاسبة ليسرد علينا مغامراته. لماذا لم نعرض للموضوع سابقـا؟ لا ادري. في رسـائله السـويسـرية كان يروي لي السطور الطوال عن الاحداث التي جرت بعـد افـتراقنـا تلك الأمسيـة الشهـيرة في شهـر حزيـران ١٩٣٩، ولكنني نسيت ثلاثة ارباعها، كنت اعرف انه كان قد تطوع للمرة الثانية في الفرقة الاجنبية. ليس بسبب واجب المواطنة انما وببساطة لكي يعيش. والا كيف سيتدبر امر غذائه ومسكنه؟ وكما يجب ان نتوقع فقد كان عليه ان ينتظر. لذا فلم يستمر سوى بضعة اشهر في الفرقة باعتبار انه غير قادر تماما على تحمـل مشـاق حيـاة الفـرقـة وقتا طويلا. وبعد تسريحه كان عليه ان يعود الى سقيفته في فنـدق موديـال اكثـر يائسـا مما مضى. وجد نفسه في باريس عندما دخلها الالمان، لكن وجود الالمـان اثـر فيـه اقـل من غيـاب الطعـام. وقد كان في عوز شديد عندما هبط على واحد من اصدقائه القدامى وكان هذا يشغل منصبا مهما في راديو باريس. وقد وجد له عملا.. ها هنا النقود، العيش والسجائر! كان الشغل يقينا سيئا.. لكن.. الصديق على كل حال ما زال

Twitter: @ketab_n

في السجن بتهمة التعاون مع العدو بوضوح. في المساء الذي اتحدث عنه كان تيريكان يستعيد كل تلك الفترة من حياته دون ان يحذف تفصيلا واحدا. كنا نقول بانه يريد التخلص بهذه الطريقة من الكلام من بعض الاشياء التي تثقله. بين فترة واخرى كان خيط القصة يفلت مني، ولكنني لم اهتم ابدا لا بالسياسة ولا بالانشقاقات والمزاحمات والمؤامرات، وقد كنت اتوقف عن الفهم في اللحظة التي اعطاه الالمان فيها امرا للمغادرة الى المانيا (وقد كان ينوي التزوج من امرأة اتفق معها على الزواج، بدءا من هذا الموقف فان الصورة تتشوش تماما، ويضيع تيريكان مني في العراء حيث يضع هناك وكيل للغستابو مسدسا بين كتفيه.

كان ذلك في جميع الاحوال كابوسا مرعبا غير معقول. هل عمل في خدمة الالمان؟. لم يحدد ابدا وبوضوح شديد وضعه انذاك. وكان الامر بالنسبة لي دون اهمية، وحتى اذا ما كان قد اخبرني بهدوء بانه قد خان فان الامر لم يكن ليغير شيئا في. على العكس فان ما اثار فضولي، بشكل خاص هو معرفة كيف امكنه النجاة والخروج من تلك الورطة والهروب سالما. ولكنني انتبهت بغتة الى انه كان قد روى لي قضية هروبه، لسنا في المانيا ولكننا في فرنسا (اذا لم نكن في بلجيكا او لوكسمبورغ!) هو يتجه الى الحدود السويسرية، منحنيا قليلا مثقلا بحقيبتين ما زالتا ترتجفان بأطراف ذراعيه منذ ايام وايام. يجد نفسه مرة بين الجيش الالماني والجيش الفرنسي، في اليوم التالي بين الجيش الامريكي والجيش الالماني، يجتاز اراضي محايدة احيانا، اراضي ليست لاحد في احيان اخرى، وفي كل مكان القصة ذاتها: لا شيء للاكل، لا مكان للنوم، لانجدة. كان محتما ان يسقط مريضا لانهم يطعمونه قليلا ويعطونه زاوية ضيقة للاستراحة.. وما اليه، ليسقط مريضا بالفعل، كان يمشي، في كل ذراع حقيبة. اسنانه تصطك من الحمى، مقاسيا العطش، فريسة للدوخة، متبلدا، يائسا. يصغي الى قرقرة الماء في بطنه الخاوية وهي تعلو حتى على دوي المدافع. الرصاص يزأر بين اذنيه. الجثث المتعفنة في كل مكان تقريبا. المستشفيات ملآنة. الاشجار معراة. البيوت مهدمة. الشوارع مكتظة بالاجئين، بالمرضى، بالعجزة، بالجرحى، بأطفال مفقودين، بارواح ضالة. كل امريء مشغول بنفسه! الحرب! الحرب! وتيريكان حائر وسط هذا كله. سويسري محايد مزود بجواز سفر وبمعدة فارغة. من وقت لوقت يرمي اليه جندي امريكي بسيجارة، ولكن ليست هناك بودرة من ماركة ياردلي، ليس من ورق صحي. ليس من

Twitter: @ketab_n

صابون معطر. وليتوج كل شيء فقد كان لديه الجرب. ليس الجرب فقط وانما القمل. ليس القمل فقط انما داء الحفر[1]. بينما الجيوش، كل جيوش سفر الرؤيا كانوا يفرغون جعبهم حواليه. جعبهم غير المكترثة بايجاد مأوى له. انها الحرب تمس نهايته جهارا. لقد سبق السيف العذل. انتهينا، لا احد يعرف لماذا يقاتل ومن اجل من. كان الالمان يتراكضون مثل الجرذان دون رغبة بالاستسلام. الاغبياء، الاغبياء المقدسون! لقد صفى الجميع حساباتهم مع الجميع، ما عدا الامريكان، هؤلاء الخصي الكبيرة البلهاء كان يتدفقون جماعات جماعات، تغص جعبهم بما لذ وطاب، جيوبهم معبأة بالسجائر واللبان واليقطين وبزهر اللعب وبما لست ادري ماذا ايضا. المقاتلون الافضل رواتبا الذين لم يلبسوا البتة ملابسهم العسكرية، المحتفظون بنقود تحرق لهم راحات كفوفهم ولا شيء يشترونه. الذين يصلون للسماء من اجل الوصول الى باريس، متضرعين من اجل فرصة لاغتصاب اولئك الفتيات الفرنسيات ذائعات الصيت الشهوانيات، او اغتصاب اي جلد عجوز اذا كن (محجوزات) كلهن. يتدافعون وهم يحرقون فضلات طعامهم امام انظار المدنيين الجياع الذين يساعدونهم برعب ودهشة. «الاوامر». استمروا بالتقدم! استمروا بتصفية الحساب! الى الامام، الى الامام!.. الى الامام نحو باريس! الى الامام نحو برلين! الى الامام نحو موسكو! اضربوا ما تشاؤون! التهموا ما تشاؤون! ضاجعوا من تشاؤون! واذا لم تريدوا فتغوطوا هناك! ليس من تاريخ، تقدموا! تقدموا! تقدموا! النهاية قريبة. النصر على مرأى البصر. ارفعوا الرايات! مرحى! مرحى! ليذهب الجنرالات والاميرالات ليتخوزقوا من مؤخراتهم! اعبروا من جانب الى جانب، الان او الفقدان الابدي. فترة رائعة! فوضى لا تنسى. اي فظاعة مخبولة! (انا الجنرال اوتيل المسؤول عن موت الكثير من احبابكم). ومثل شبح كان العزيز تيريكان. الروح والمعدة خاويتان. انه يوسع ضربا انذاك. هاربا بسرعة خاطفة بين الجيوش، دائرا حولها، متجاوزا اياها، متحايلا الحيل معها، متقدما مصطدما بوسطها وبوسط خوفه، متعلما انكليزية معقولة او المانية معقولة او رطانة او اي امر يستطيع ان يتدبر به فراره، وهو يجاهد برجليه لكي يستطيع التخلص ولكنه متشبث على الدوام بحقائبه الجلدية التي صارت تزن الآن طنا. العين ثابتة باتجاه الحدود السويسرية رغم انقضاضاته وانعطافاته

---

(١) داء يصيب الدم ويفسده.

Twitter: @ketab_n

الحادة واستداراته على نفسه. يتقدم احيانا على الاربعة، احيانا مستقيما على قدميه، احيانا منبطحا تحت كومة من الزبالة، احيانا يقوم برقصة القديس غوي لكنه يتقدم دائما الى الامام اذا لم يرد على عقبيه، مدركا الحدود اخيرا، ليتبين له بانها مغلقة. يعود القهقري الى نقطة انطلاقه. اسهال، حمى وحمى من جديد، زيارات وزيارات من جديد. تطعيم والتطعيم ثانية. جيوش جديدة تتواجه. جبهات جديدة. جيوب جديدة. انتصارات جديدة. تراجعات جديدة، والمزيد المزيد بالطبع من القتلى والجرحى، والمزيد من النسور، والمزيد من الروائح المعطرة. ومع ذلك ورغم كل شيء فقد ظل متمسكا بجواز سفره وبحقيبته، وبما تبقى له من التوازن العقلي، وبأمله اليائس بالحرية.

ـ وماذا كان يوجد في تلك الحقائب ليجعلها ثمينتين الى هذا الحد؟.

ـ كل ما اخذته معي. اجاب.

ـ هذا يعني؟.

ـ كتبي وكراساتي وكتاباتي و. . .

نظرت اليه مندهشا.

ـ كلا. . ايها الرب القدير. . لن تقول لي بان. .

ـ اجل. قال. كان معي بكل بساطة الكتب والاوراق والتنبؤات ومقتطفات بخصوص بلوتون وجامبليك وكلودسان ـ سيمون. .

ورغما عني فقد انفجرت بالضحك، والضحك، والضحك والضحك، وخيل الي بانني لن استطيع ايقاف نفسي عن الضحك. جرح من ذلك فاعتذرت اليه.

ـ وقد جرجرت كل هذه التوافه مثل فيل. صرخت. مخاطرا ان تفقد رأسك؟.

ـ لا يرمي الانسان اعز ما لديه بسرور.

ـ انا افعل.

ـ كل حياتي كانت مرتبطة بتلك الاشياء.

ـ كان يجب ان ترمي حياتك ايضا.

Twitter: @ketab_n

ـ كلا . . ليس تيريكـان . كان يقـول بينـما تقـدح عيناه لهبا . وبغتة توقفت عن الرثاء له وعرفت باني لن استطيع الاشفاق عليه ابدا .

ولأيـام طوال فان حقـائبـه صارت تثقل علي ، بشكل هائل ، تثقل على عقلي وروحي في آن كما كانتـا تثقـلان على اذرع تيريكـان عنـدمـا كان يدب مثـل بقـة على معطف المهـرج العجيب (ارليكـان) كما كانت تسميـه اوروبـا . كان يظهـر لي احيـانا في الحلم بقسمات اميل جاننكز ، جاننكز «الضحكة الاخيرة» ، جاننكز بواب الفندق الكبير المطرود الذي فقد مكانته والذي كان ينسل كل مساء خفية بزيه الرسمي بالرغم من انحطاط مكانته الاجتماعية وتحوله الى مراقب تواليت عام . كنت اجدني في الاحلام وانا اتابع المسكين كونراد على مبعدة بضعة خطـوات لكي يسمـع صوتي . لم يكن ينفعني ان اصـرخ . لم يكن يسمعني ابـدا مع ذلـك القصف ، القنـابـل المتوالية ، ورشقات الرشاشات ، صرخات الجرحى ، عويل المحتضرين . انها الحرب والآلام في كل مكان . هنا ثمة حفرة صنعتها قنبلة ، مملوءة بالسيقان والاذرع ، ثمة محارب هناك لما تزل جثته حارة بعد . الازرار مقطعة ، اعضاؤه الجنسية العزيزة مفقودة . هنا جمجمة معراة توا ، تعج بدود ضخم احمر ، طفل مخوزق على حاجز . مقطورة للذخيرة ترشح دمـا وقيئـا . الاشجـار جذورها في الهواء حيث تتعلق اعضاء آدمية ، ثمة ذراع ما زالت تحتفظ بيـد ، ثمـة يد بقفـاز . ثمـة حيـوانـات ايضـا تخب بعيـون متلألئة من الجنون . اللحم عار ، حيـوانـات دون امعـاء حيث تمشي الآف الحيـوانـات الاخـرى فوقهن وورائهن ، ملايـين اخـريـات ، مسلوخة ، معذبة ، ممزقة ، مضروبة ، متقيئة ، تركض مثل المجانين ، تركض امام الاموات ، تركض نحو نهر الاردن ، مسلوبة من اوسمتها ، من جوازات سفرها ، من ازمتها ، من شكائمها ، من لجاماتها ، من ريشها ، من فروها ، من مناقيرها ، من عصا القديس جاك ، وكـونـراد موريتـوروس هارب ، الى الامـام ، الاقـدام جزمـة من جلد مبرنق ، الشعـر مطلي بالـدهن ، الاظـافـر مقلمة ، البياضات منشاة ، الشارب مشمع ، البنطلون مكوي ، وهوينط مثـل الهـولنـدي الطـائـر ، متـوازنـا بحقـائبه بدل ان يتوازن بصابورة ، عرقه يتخثر مثل بخار متجمد ، الى الحدود ! الى الحدود ! تلك كانت اوروبا ! اوروبا لم ارها ابدا ، اوروبا لم اتذوقها ابدا ! آه ! جامبليك ! بورفير ! اراسم ! دانس سكوت اين نحن ؟ اي اكسير نشرب اللحظة ؟ بأيـة حكمـة نستغـرق ؟ ايهـا الحكـماء عرفوا الابجدية ؛ نظموا اللهفات ! اجلدوا الخبل حتى الموت اذا قدرتم ! هل تلقي هذه النجوم نظرة علينا ام هي مجرد حفر متكلسة في قبة من لحم

Twitter: @ketab_n

متألم . اين يوجد الآن الجنرال دوبيلغنغر؟ والجنرال ايزنهاور؟ والجنرال كورنيلوس تريفامير اظفار القطة الخفية؟ اين العدو؟ اين فلان وفلانة؟ كم اود ان ابعث برسالة الى الخالق لكنني لا استطيع تذكر اسمه . انا جد مسالم ، جد بريء ، محايد ، لست سوى محايد ، لا املك شيئا لاقربه سوى هاتين الحقيبتين . نعم مواطن . نوع من مجنون هادىء ولا شيء آخر . لا اطلب احتفالا ولا نصبا تذكاريا لاسمي . كل ما اريده هو ان تمر حقائبي ، انا سألحقها فيما بعد ، سأتبعها حتى لو هيكلا عظيما ، سأكون موجودا فيما بعد . موريتر وس[1] هو اسمي ، سويسري ، نعم . متطوع بالفرقة الاجنبية ، مشوه حرب ، سموني كما تشاؤون ، جامبليك اذا رغبتم ، او بكل بساطة «الحكاك» .

كنا قد قررنا الاستفادة من موسم الامطار لنحرث زاوية في الحديقة لزراعتها بالخضروات . وقد اخترنا موضعا بكرا لم يجر العمل عليه من قبل . امسكت المعول وتأبطت زوجتي المعزقة ، وقد حسبت ان تيريكان سيشعر بالمهانة من رؤية امرأة تقوم بمثل هذا العمل . ليدهشنا بالفعل دهشة كبيرة عندما اقترح ان يقوم بالعزق . كان تعبا منذ نصف الساعة الاولى ، لكن هذا التعب وضعه بمزاج رائق الى درجة انه طلب منا بعد الغداء ان نضع بعض الاسطوانات على الحاكي . كان يدندن ويصفر لدى استماعه ، ثم سألني فيما اذا كان لدي موسيقى كريج المسماة (بير كينت) بشكل خاص . وقد كان هو منذ وقت طويل يعزف احيانا على البيانو ، متعلما اللعب عليه سماعيا فحسب . ثم اضاف بانه اعتبر على الدوام كريج مؤلفا موسيقيا عظيما وانه يفضله على الآخرين جميعا . لقد افحمني ! . وضعت زوجتي فالسا . من فالسات فينا ليبدأ تيريكان بالانتعاش الفوري ، ولينهض بغتة نحو زوجتي طالبا منها الرقص اذا رغبت بمراقصته . اوشكت ان اتدحرج من مقعدي . تيريكان يرقص ! ان هذا الامر يبدو غير قابل للتصديق وشاذا ! ولكنه قام به بكل جوارحه وروحه . صار يلتف ويلتف حتى داخ اخيرا .

ـ انت ترقص بشكل رائع . قالت زوجتي بينما كان هو يرتمي متعرقا لاهثا .

ـ لما تزل شابا بعد ! . قلت لألطف الجو .

---

(١) كلمة لاتينية تعني الذاهب للموت ، أو المقبل عليه .

Twitter: @ketab_n

ـ لم اقم بهذا منذ العشرينات. قال وقد احمر قليلا وضرب بيده على فخذه.
ـ آه! هذا الهيكل العجوز ما زالت فيه بقية حياة.
ـ هل تريد سماع هاري لودير؟.. سألته. تحير للحظة. مودير، لودير..؟ ثم فهم.

ـ نعم بالتأكيد. قال وكان من الواضح انه بمزاج جيد للاصغاء لأي شيء. وضعت في الجهاز اسطوانة «رومن ان ذي كلومن». وليفاقم دهشتي فانه حاول حتى ان يغني لحنا. قلت لنفسي بانه ربما قد شرب كثيرا من النبيذ عند الغداء، الا انه كان واضحا ان سكره لم ينجم عن النبيذ ولا عن الغذاء. ببساطة كان سعيدا مرة واحدة. وفي قمة جذله عرضت (جوان وارتن) فجأة. كانت تعيش تحتنا بالضبط في منزل بنته توا. كانت وتير يكان قد تقابلا آنذاك مرتين او ثلاثا للترحيب على بعضهما فحسب، وفي ذلك اليوم كان في مزاج خارق للعادة لكي يلم بما يكفي من الانكليزية لتبادل حديث معها. عندما انصرفت لاحظ قائلا لنا بانها امرأة ممتعة جدا بل انها جذابة الى حد ما، واضاف بانها تتمتع بشخصية مغناطيسية وتشع بالصحة والبهجة، وانها ستكون فكرة ليست بالسيئة لو اعتنى بالعلاقة معها، خصوصا وانه يشعر بالارتياح لدى حضورها.

بل ان حماسه دفعه للانطلاق بحثا عن مذكراته لكي اقرأها. وبوجه عام فقد كان يوما معتبرا بالنسبة لتير يكان، اقل اعتبارا منه ذلك اليوم الذي نزل فيه خايمه دو انغولو من جبله لزيارتنا. جاء خصيصا للتعرف على تير يكان الذي كان يعرف بوجود خايمه، ولكننا لم نعر اهمية للقائهما. وبصراحة فقد كانا يمتلكان القليل من الاشياء المشتركة حتى انني كنت مقتنعا بانهما لن يتفاهما. بل الاكثر من ذلك فاننا لم نكن نعرف كيف ستتطور الامور بعد ان يشرب خايمة بضعة كؤوس. المناسبات التي جاء لرؤيتنا بها دون ان يزعج الجميع بحماقات وشتائم كانت مناسبات نادرة للغاية وبأوقات متباعدة. في احد الايام وصل خايمه على حصانه بعد الغداء، ربط الحصان من لجامه بسلسلة، وربت على جنباته ثم هبط الممر. كان الصباح جميلا مشمسا، وبالاحرى حارا بالنسبة لشهر شباط. وكالعادة كان يضع حول جبهته عصابة بألوان صارخة، كان ذلك منديله ربما. كان خايمه اسمرا مثل كستناءة، جافا مثل وخزة دبوس، سيقانه مقوسة قليلا، لما يزل جميلا، إسبانيا جدا، ومتحيرا على الدوام ايضا، كانت هناك ريشة مغروزة في شبه عمته. كان يمكن اعتباره هنديا احمر لو كان هناك

Twitter: @ketab_n

القليل من الاصباغ على وجهه ولوكان يرتدي زيا مختلفا، هندي احمر من قبيلة (تشيباوا) او (شاوني). انه نمط الرجل الخارج على القانون.

عندما نظرت اليهما اثناء مصافحتهما صعقت من ذلك التباين بين الرجلين (المولودين بفارق ستة ايام فحسب) اللذين كانا قد امضيا شبابهما في حي ارستقراطي رزين من احياء باريس، لوردا «فونتلير وري» الصغيران اللذان عرفا الوجه الآخر للعملة واللذان لم تتبق لهما سوى ايام معدودات، اللذان لن يلتقيا مرة اخرى ابدا، الاول نقي جدا، منهجي، نظيف، مدقق، محترس، رجل مدن، منزو، متأمل. الآخر على النقيض تماما. الاول نمط جندي مشاة، الآخر نمط الفارس. الاول يتذوق الجمال الثاني كلب مسعور. لقد كنت اتوهم بانهما يشتركان بقلة من الاشياء، لقد كان بينهما الكثير منها: الثقافة المشتركة واللغة المشتركة والتشكل المشترك والحب المشترك للكتب والمكتبات والبحوث، موهبة الكلام ذاتها، الانحناءة المشتركة (الاول للمخدرات والثاني للكحول). كما ثمة صلات توحدهما بقوة اكبر: وساوسهم المشتركة بصدد الشر. خايمه كان من الرجال الاكثر ندرة، ممن عرفت، ممن يمتلكون عصبا شيطانيا. كان مثل تير يكان متخصصا بالشيطانيات، اختلافهما الوحيد بهذا الصدد ان تير يكان كان يخاف الشيطان بينما كان خايمه يتعاطاه، على الاقل هذا انطباعي. كان الاثنان ملحدين اصيلين، وكانا ضد المسيحية بشكل عميق. كان تير يكان يميل الى العالم الوثني، بينما خايمه الى العالم البدائي. كان الاثنان ممن يسمون برجال الثقافة، بالمتعلمين، بالاذكياء، ومع ان خايمه كان يلعب دور المتوحش والاحمق فانه كان رجلا ذا ذوق مرهف: كان يبصق على كل ما هو مرهف ورفيع، ولم يكن ليخرج البتة من جلد اللورد فونتلير وي الصغير الذي كانه خلال شبابه. ووحدها الضرورة القاهرة هي التي ارغمت تير يكان على التخلي عن (الحياة الاجتماعية): لقد ظل في الجوهر غندورا، مدعي جمال، نفاجا.

وعلى الرغم من انني قد اخرجت قنينة واقداحا ـ القنينة نصف ملآنة ـ فقد كنت اتخوف مما سيحدث. لم يبد لي ممكنا ان شخصين اثنين قد سلكا طرقا متشعبة الى ذاك الحد يمكنهما ان يحتملا بعضهما وقتا طويلا. وقد اخطأت في كل ما ذهبت الي، فلم يتفاهما فحسب بشكل كامل، وانما ايضا لم يشربا الا قليلا. كانا ثملين بخمر اخر اكثر سطوة.. الماضي. اشارة

Twitter: @ketab_n

عابرة الى شارع هنري ـ مارتان (اكتشفا بدقائق معدودة انهما قد نشاءا في الزقاق نفسه) كانت كافية لاستثارتهما. استعاد خايمه طفولته، وظل يقلد اهله وعاداتهم، ويحاكي زملاء مدرسته ويمثل تمثيلا ايمائيا شيطنته، مر من فرنسا الى اسبانيا وعاد الى فرنسا وهو يلعب تارة لعبة الدجاجات الخائفة، وتارة الشابة العذراء الخجولة وتارة النبيل الاسباني المغتاظ وتارة الام حادة الطبع البلهاء. كان تير يكان مختلجا، لم اتصور بانه قادر على ضحك متواصل وقوي الى هذا الحد، لقد اختفى المتحذلق الكبير المكتئب، اختفت البومة المتعجرفة، لم يكن امامي سوى رجل طبيعي، مسترخ. كان يبتهج دون حيطة.

ولكي لا يتعكر هذا الاحتفال التاريخي القيت بنفسي الى السرير وسط الغرفة ثم احسست باني اوشك على الاغفاء، ولكنني كنت احتفظ بعينين كبيرتين مفتوحتين.

وصار لدي انطباع ان خايمه كان يعيش كلية حياته الصاخبة في غضون الساعات القصار الجارية، وايـة حياة! من حي (باسي) الراقي في باريس الى الغرب الامريكي الاقصى مباشرة ودفعة واحدة. ابن نبلاء اسبانيا، المتعلم باكبر الترف، الكاوبوي، الدكتور بالطب، الانثروبولوجي، استاذ اللغويات، مربي الماشية اخيرا في قمم سانتارلوسيا هنا في «بيك سور». الذئب المتوحد، المحنك بالشؤون التي يحب، الذي على خلاف ازلي مع جاره بورونـدا وهو اسباني مثله، الغاطس بكتبه، وبقواميسه (الصينية والسنسكريتية والعبرية والعربية والفارسية اذا لم نعددها كلها). زارع الخضروات والفواكه. صياد الايائل خلال الموسم ودون الموسم، غير المتوقف اثناء ذلك كله عن قيادة خيوله. الثمل الذي يتشاجر مع الجميع حتى مع اعز اصحابه، الذي يطارد زواره بسوط، الذي يدرس حتى ساعات الصبح الاولى وهو يرجع الى مؤلفه الضخم حول اللغة الذي يأمل ان يكون (كتاب اللغة)! ـ والذي انتهى منه قبل ان يموت بالضبط ـ حيث تزوج في اثناء ذلك مرتين، انجب اطفالا ثلاثة، من بينهم ابنه الاول الذي يحبه كثيرا والذي مات بحادث سيارة غامض الى جانبه، وهي المأساة التي اثرت فيه وقتا طويلا.

كان الاصغاء من السرير حيث اضطجع الى تلك المناقشة امرا ممتعا. الحديث الذي يوجهه عابد الطبيعة الى الحكيم، الانثروبولوجي الى المنجم، الرجل المثقف الى الرجل المثقف، اللغوي الى فأرة المكتبة، رجل الحصان الى متسكع الرصيف، المغامر الى الناسك،

Twitter: @ketab_n

البربري الى الغندور، عاشق اللغة الى عاشق الكلمات، رجل العلم الى المؤمن بالأرواح الخفيـة، اليـائس الى الجنـدي السابق في الفرقة الاجنبية، الاسباني الفخور الى السويسري البارد الطبع، الجلف المعوز الى الجنتلمان حسن اللباس، الهمجي الى الاوروبي المتحضر، المتمرد الى الواطن الشريف محترم القانون، رجل الآفاق الواسعة الى رجل الحجيرة، الجيفة الى الكحولي. .

كانت السـاعـة الحـائطيـة تعلن اهتـمامها بلغطهم المنغم برنات متوالية كل ربع ساعة. كانت نبرة اصواتهم قد اصبحت في النهاية غليظة وغير مألوفة كما لو انهم شرعوا بمعالجة امور خطيرة. كان الأمر يتعلق باللغة. لم يكن تير يكان يذكر اشياء مهمة. وبالرغم من معارفه فقد سمحت لنفسي ان ارجوه ان لا يشك البتة بوجود السنة ولغات ايضا، وليس لهجات، لغات كبيرة وصغيرة، غير مشهورة وبدائية، بعضها ذو تعقيد هائل باروكي، اذا استطعنا القول، في اشكالها وبنائها. كيف يمكنه ان يعرف ـ بينما قلة من الامريكان يعرفون بأنه كانت توجد جنبـا الى جنب قبـائـل ذات لغـات مختلفـة تمامـا كما تختلف لغة «البانتو» عن السنسكريتية، والفلندية عن الفينيقية، واللغة الباسكية عن الالمانية. لم يفكر ابدا ـ وهو الرجل الكوني ـ ان ثمـة رجـلا يحمـل اسم خايمه دوانغولو في ركن قصي من الكرة الارضية يسمى «بيك سور»، هو رجـل ملحـد وملعـون يقضي ايامه ولياليه بالمقارنات والتصنيفات وتشريح الجذور اللغوية وبـالاعـرابـات والتركيبات واللواحق والاشتقاقات والتماثلات والقرابات اللغوية والشواذ من اللغات واللهجات من جميع القارات ومن جميع العصور ومن جميع الجذور وفي جميع الشروط الانسـانيـة. لم يكن يفكـر ابدا ان كل هذه الامور يمكن ان تتجمع في رجل واحد مثل هذا الـ (انغولو) المتوحش، الاديب، ابن الناس، المعتزل، الايديولوجي، الابن الحقيقي لابليس، كان يريـد ان يصـرخ «انه كائن هائل، انه انسان هذا الرجل!» وكأنه اكتشف الأمر متأخرا. لقـد كان انسـانـا بالتأكيـد هذا العزيز خايمه دوانغولو، المعبود، المنتبذ، المكروه، الجذاب، الساحر، صعب المراس، الملعون، المتدله بالشيطان، ابن القحبة الحقير، ذو القلب الكبير والروح المحتجبة، العدو الأسوأ لنفسه، الذي كان عليه ان يقضي بقية حياته بكرب مرعب، مشـوهـا، مخصيا، مذلا حتى اعمق اعماق كيانه، ولكن المحتفظ حتى النهاية بعقله وحذاقته ولا ابباليته وموقفه ازاء التحدي بين الرب والبشر، وأناه الكبيرة اللاشخصية.

Twitter: @ketab_n

هل سيكونان صديقين حميمين؟ اشك بذلك. كان من الافضل ان لا ينفذ تير يكان مشروعه بتسلق الجبل لكي يطرح مودته على خايمه. لقد كانا في عالمين متباعدين على الرغم من نقاطهما المشتركة، لن يقدر الشيطان نفسه ان يوحدهما ضمن محبة واخاء. كنت اقلب لقاء ما بعد الظهر ذاك بذهني فلم اتبين سوى فردين اثنين منومين مغناطيسيا بخليط من العوالم التي كانت تحجب بظلالها شخصيتيهما واهتماماتهما وفلسفتيهما في الحياة.

ثمة على وجه الارض اتصالات خاطفة وسرية مثل التقاطعات الكوكبية التي تبدو خرقا لقوانين الطبيعة. وبالنسبة لي انا الشاهد على حدث لقائهما، فقد كان عندي انطباع بأني حضرت زواجا بين النار والماء.

اختفى الاثنان الآن. هل نستطيع التساؤل، بعدالة، فيما اذا كانا سيلتقيان من جديد، وفي اية مملكة. كان لديهما الكثير لتفكيكه، الكثير لاكتشافه، والكثير لعيشه! ارواح جد وحيدة، جد مليئة بزهو المعرفة، ومليئة بالعالم وشروره، وليس من ذرة ايمان لا عند الاول ولا الثاني. كانا يشتمان العالم في لحظة معانقتهما له، متشبثان بالحياة ومستهتران بها، هاربان من المجتمع دون التوصل مطلقا الى الوقوف وجها لوجه امام الله، يلعبان ادوار السحرة وعبدة القوى القوى الخفية دون ان يكتسبا حكمة الحياة ولا حكمة الحب، في اية مملكة، اتساءل اللحظة، يتواجدان الآن؟ هل سيلتقيان ببعضهما؟.

صباح يوم مشرق كنت امر من امام حجيرة تير يكان بعد ان القيت بالزبالة من اعلى الجرف الصخري الى البحر، وجدته متكئا، على هيئة المتأمل، الى النصف الداخلي من الباب الهولندي، احظى بمزاج رائق في كل مرة القي الزبالة فيها، لانني كنت اكافأ كل مرة بنظرة عذبة يمنحني اياها الشاطيء. في ذلك الصباح خاصة كان كل شيء هادئا، فاتنا! السماء، الماء، الجبال كانت كلها قبالتي كما انعكاس في مرآة. ولو لم تكن الارض كروية لتسنى لنا ان نلمح الصين عندما يكون الجو صافيا.

ـ الطقس جميل اليوم. قلت واضعا زبالتي على الارض لكي اشعل سيجارة.

ـ نعم، انه جميل. قال. ادخل للحظة من فضلك.

Twitter: @ketab_n

دخلت وجلست بالقرب من طاولته . ماذا ايضا؟ تساءلت في نفسي . استشارة اخرى؟ البارحة اشعل سيجارته كما لو انه لا يعرف من اين يبتديء . كان يمكن ان انقر على جبهتي عشر سنوات دون ان اتمكن من معرفة ما يريد قوله لي . كنت على الاقل ، كما قلت له ، بمزاج لا مثيل له ، وان ما يزعجه لا ابالي به . كانت روحي صافية ، حرة وخالية .

ـ عزيزي ميللر . ابتدأ بنبرة رتيبة . تصرفك ازائي لا يمكن ان يقوم به انسان ضد آخر .

ـ ماذا فعلت بك الآن؟ . قلت ناظرا اليه دون ان افهم .

ـ نعم . قال . ربما لم تنتبه الى ما فعلت .

لم اقل شيئا ، وتملكني فضول شديد لمعرفة التتمة ، لاجد مبررا جديدا لغيظي منه .

ـ لقد دعوتني للمجيء الى هنا والاقامة كما لو في بلدي حتى اواخر حياتي ، لا ادعي بانني لا اشعر بحاجة الى العمل وبأنني قادر على القيام بما يحلولي ، ولا ادعي بأنه من غير الممكن ان تطلب مني شيئا بالمقابل ، حسنا ، انتم لا تقدرون على القيام بمثل هذا لواحد من امثالكم . هذا غير عادل . هذا يجعلك غير محتمل . كان يريد القول ان هذا قد احبطه . كنت اتنفس بشكل متقطع الى درجة انني لم استطع الرد على الفور .

ـ والاكثر من ذلك ، تابع . فأنا لست في مكاني هنا ، انا رجل مدينة ، واشعر بالحاجة لرصيف تحت قدمي . لو كانت توجد مكتبة فقط يمكنني ارتيادها ، مكتبة اوسينما . . انا سجين هنا ـ وجال بنظراته في المكان ـ هنا حيث اقضي الايام والليالي وحيدا دون شخص اكلمه . حتى دونك انت . انت جد مشغول معظم الوقت ، بل انني اشعر بانكم لا تهتمون بما اقوم به . ما العمل والحالة هذه؟ هل ابقى جالسا هنا حتى الموت؟ انت تعرف باني لست رجلا كثير التشكي لقد حاولت ان اشغل نفسي في نطاق الممكن : انني احاول الانشغال بعملي ، اقوم بنزهة بين فينة واخرى ، اقرأ . . واحك باستمرار ، كم سأتحمل؟ احس بانني سأغدو مجنونا في هذه الايام .

ـ اعتقد باني قد فهمتك . قلت . خسارة ان تأخذ الامور هذا المجرى . لقد كنت اود تقديم مساعدة لك فحسب .

Twitter: @ketab_n

ـ نعم، اعرف ذلك يا صديقي! هذا ذنبي، على الاقل..

ـ ماذا تريدني ان افعل؟ ان ارسلك الى باريس؟ هذا مستحيل.. على الاقل في الوقت الحالي.

ـ اعرف هذا كله. قال.

وما لم يكن يعرفه هو اني كنت اتخبط خبط عشواء لكي اسدد الديون التي استدنتها لكي اوصله الى امريكا.

ـ انني اتساءل. قال وهو ينقر باصبعه على الطاولة، كيف ستكون مدينة مثل سان فرانسيسكو.

ـ ممتازة لبعض الوقت. قلت. ولكن ماذا ستفعل هناك؟ لا أرى عملا يمكنك القيام به هناك ولا امتلك مطلقا ما يمكنني من الانفاق عليك هناك.

ـ بالطبع. قال. ليست المسألة هنا، يا إلهي العظيم، لقد قمت حتى الان بما يتوجب بشكل هائل، واكثر من المطلوب، لن استطيع تسديد كل هذا.

ـ طيب، لا نتكلم حول هذا الموضوع الآن! المسألة هي التالية: لست مسرورا هنا، لا احد يستطيع القيام بشيء حول هذا، لا انت ولا انا كنا نتكهن بالامر. انا مسرور لانك تقول لي جوهر افكارك. ربما سنصل سوية لايجاد مخرج. صحيح انني لم انتبه كثيرا لعملك، ولكنك ترى ضيق الوقت المتهيء لعملي انا، انا ايضا كما تعرف احب التسكع في شوارع باريس، واشعر بحاجة لرصيف تحت قدمي كما قلت. واحب ايضا الذهاب الى المقهى عندما ارغب بلقاء اصدقاء لطفاء. وبالتأكيد فان وضعي هنا يختلف عن وضعك. لست تعيسا، ابدا، مهما يكن الحال. ولو كنت امتلك كومة من المال لسافرت، لدعوت اصدقائي القدامى لزيارتي ولبقيت هنا. سأقوم بالكثير من الاشياء التي احلم بها، الا ان في روحي امرا اكيدا. هو اننا هنا في الجنة. اذا جرت الامور بشكل سيء فلن القي باللائمة على هذا الموضع الذي نحن الآن فيه.. الطقس رائع اليوم، اليس كذلك؟ وسيكون رائعا غدا حتى لو امطرت سكاكين؟ سيكون رائعا عندما يغطي الضباب كل شيء ونصير في ظلام دامس. كان ذلك رائعا بالنسبة لك ايضا عندما وصلت هنا، وسيكون رائعا عندما لن تكون بعد هنا. هل تعرف ما الذي يجري بشكل سيء؟ (وكنت انقر بالسبابة على رأسي) انه

Twitter: @ketab_n

يكمن هنا! في يوم مثل هذا فانني استعيد ما قد قلته لك مرارا وتكرارا: ليس العالم سيئا ولكن طريقتنا في النظر اليه هي الرديئة.

كان يبتسم ابتسامة غامضة كما لو انه يريد القول: «هذا الشديد الشبه بميللرا انه يتملص بمهارة، انا هنا لكي اقول له انني اعاني وهو يجيبني بان كل شيء على ما يرام!».

ـ اعرف بم تفكر. قلت. صدقني، لقد وضعت نفسي مكانك. عليك انت ان تحاول القيام بشيء لصالحك، لقد قمت بما طلبته مني، واذا كان ما قمت به خطأ فعليك ان تساعدني، انا مسؤول عنك قانونيا، وانت مسؤول عن نفسك أخلاقيا. لا احد يستطيع شيئا لك سواك. تظن بانني لا ابالي بعذابك وتعتقد بأني اتعامل مع جربك باستخفاف. انت مخطىء. كل ما اقوله هو ان تجد ما تتحرق اليه، ستحك وتحك عبثا ولن يخفف هذا عنك اذا لم تجد السبب الحقيقي لحرقاتك.

ـ هذا صحيح الى حد ما. قال. لقد توصلت انا الى الموضوع. طأطأ رأسه للحظة ثم نهض، ثمة فكرة تنغر بروحه.

ـ نعم، انا اكثر يأسا من فعل اي شيء.
نظرت اليه حائرا عندما اضاف:

ـ هذه المرأة، مدام وارتون ماذا تعتقد بشأنها؟.
ابتسمت، كان السؤال عريضا.
ـ هل لديها قدرة على الشفاء حقا؟.
ـ نعم. قلت.
ـ هل تعتقد انها قادرة على مساعدتي؟.

ـ الأمر يتوقف عليك، هل تريد مساعدة ام لا؟ تستطيع ان تشفي نفسك بنفسك اذا آمنت بنفسك بما فيه الكفاية.

كان يتظاهر بانه لا يصغي، والقى وابلا من الاسئلة حول افكار مدام وارتون، عاداتها، تكوينها.. الخ.

Twitter: @ketab_n

ـ بامكاني ان اذكر لك الكثير من الاشياء حولها. قلت. وبامكاني في الحقيقة ان احدثك عنها طيلة النهار، ولكن اية اهمية لذلك؟ اذا ارتميت بين يدي احدهم فيجب ان تخضع له كليا. ان طريقة تفكيرها شيء وما تستطيع ان تقدمه لك شيء آخر، لوكنت مكانك، وكنت يائسا كيأسك المزعوم فلن اعير اهتماما للطرق الملتوية، ان اسير على الطريق الصحيح هو الأمر الوحيد الذي سيهمني.

ابتلع كل هذا كاحسن ما يكون مشيرا الي بان تيركان ليس ميللر، والعكس صحيح، واضاف انه يعتبرها امرأة ذات ذكاء عال، ولوانه يعترف بانه قد فهم بشكل سيء بعض افكارها التي يخيل اليه بانها تتضمن شيئا من السرية ونكهة من التصرف. ها انت تخطيء هنا. قلت. ليس لديها اية علاقة بالتصوف ولا بالارواح الخفية، واذا كانت تؤمن بسحر ما فانها تؤمن بالسحر الحياتي اليومي كما كان يمارسه المسيح.

ـ امل بأنها لا تريد هدايتي. تحسر. لن اوافق على هذه الهراءات.
ـ هذا ما تحتاجه ربما مع ذلك. قلت ضاحكا.

ـ كلا! هل تعتقد حقا ان بامكاني ان اضع نفسي بين يديها؟ يا إلهي، حتى لوكانت المسيحية هي الامر الذي تود ان تحدثني عنه فاني على استعداد للاصغاء اليها.. ساصغي لأيا شيء كي اتخلص من هذا الرعب، هذا الجرب المرعب، سأصلي اذا كانت راغبة بذلك.

ـ لا اظن انها ستطلب منك شيئا ضد رغباتك يا عزيزي هي ليست من ذلك النوع الذي يفرض افكاره قسرا، لكنني مقتنع بأنك حتى لو اصغيت اليها جديا وآمنت بان لديها شيئا لصالحك، فثمة مخاطرة ان تكتشف افكارك وتصرفاتك التي ليست لديها ادنى فكرة عنها. وعلى اية حال فلا تفكر بشيء وتتصرف بسواه.. ليس معها! ستكتشفك يوما.. ليست هي من يمكنك خديعتها، انت تخدع نفسك والحالة هذه.

ـ هل لديها معارف مطلقة.. اقصد معارف دينية؟.
ـ بالطبع! اذا رغبت ان تطرح الامر على هذه الشاكلة.
ـ ماذا تعني الآن؟. سأل ببعض من القلق.

Twitter: @ketab_n

ـ ما يمكن ان اقوله يا صديقي انها لا تمتلك معارف دينية كما تقول، انها متدينة حتى النخاع. انها تعيش معتقداتها، انها لا تفكر بالامور بدافع مناسبة طارئة، هي تفكر.. هكذا دون زيادة ولا نقصان. انها تفكر عميقا بالاشياء وتعيشها. افكارها حول الحياة وحول الله وحول كل شيء هي من البساطة الى درجة انك ربما لن تستطيع فهمها للوهلة الاولى، ليست مفكرة بالمعنى الذي ذهبت اليه، بالنسبة لها فان العقل هو كل شيء، اننا نكون ما نفكر به. اذا كانت الامور لا تجري في داخلك بشكل حسن فانت تفكر بشكل خاطىء، هل تفهم هذا؟.

ـ انه امر بسيط. قال موافقا بمظهر متألم (اراد القول: انه اسهل من اللزوم؟)، كان يمكن ان يثار لو قدمت له المسألة بطريقة معقدة، تجريدية، وصعبة المتابعة، كل ما هو بسيط ومباشر لم يكن يوقظ فيه سوى الريبة. من جهة اخرى فقد كان يحسب ان امكانية الشفاء لا يمكن الا ان تكون سحرية ومكتسبة بجهد، بتنظيم ومران، ومؤسسة على نسق سري، لم يكن رأسه ليتصور اتصالات مباشرة بين القدرات جميعا.

ـ لديها قوة لا يمكن انكارها. قال. وحيوية فيزيقية يمكننا الاحساس بها. اعرفها. ربما تجهل اصلها ولكنها تمتلكها وتشعها. ثمة اناس جهلة موهوبون بمثل هذه القدرات.

ـ يمكنك الاطمئنان في جميع الاحوال بانها ليست بجاهلة. قلت. ولن تستهويك هذه القوة الفيزيقية التي شعرت بها اثناء وجودها الا اذا..

ـ الا اذا ماذا؟.

ـ لن اقول لك الآن، لقد تكلمنا ما فيه الكفاية عنها. والنتيجة قبل كل شيء وكما قلت لك تتوقف عليك وليس عليها. لن يشفى شخص الا اذا اراد الشفاء. والفرضية المعكوسة صحيحة ايضا، بالرغم من صعوبة تقبلها. انه لاكثر سهولة ان تنشىء وضعا سلبيا من ان تنشىء وضعا ايجابيا، على اية حال، ومهما ستكون النتائج فان التجربة ستكون مفيدة لكن فكر جيدا قبل ان تطلب منها المساعدة، وعليك انت شخصيا ان تطلب ذلك منها، هل فهمت؟.

Twitter: @ketab_n

ـ لا تفعل انت، سأسألها انا بنفسي غدا على الاكثر اذا رأيتها، وما سوف تأمرني بالقيام به سيكون سواء لدي، سوف انحني على ركبتي مصليا اذا ارادت، سأفعل اي شيء! انا في منتهى القوة.

ـ حسنا. قلت. سنرى.

كان الصباح اروع من ان اضيعه بالانكباب على الآلة الكاتبة. انتقلت الى وسط الغابة وحيدا، وعندما وصلت الى بركتي المعهودة، اتكأت على جذع شجرة واخذت رأسي بين كفي وانخرطت بالضحك ضحكت من نفسي، ثم منه، ثم من القدر، ثم من ردود فعلي الداخلية، كانت تهجم على روحي موجات من الغضب الذي كان يعلو ويهبط بلا انقطاع. انا محظوظ كبير مع ذلك. حتى اذا اراد العودة الى باريس فسأنتهي الى ان اتدبر له الأمر بطريقة او باخرى. وعلى كل حال فأي درس! لن يدفعني ابدا ابدا كائن ان احل مشاكل الاخرين نيابة عنهم. انه لخطأ واي خطأ ان نظن اننا نستطيع ببعض التضحيات التغلب على صعوباتهم! اي تفاؤل! كما كان محقا ان يتصور بانني مسؤول عن كآبته! محقا ومخجلا. كان ينبغي عليه بعد توبيخ من ذلك القبيل ان يقول: «انا راحل، راحل غدا، وهذه المرة لن آخذ حتى فرشاة اسناني، سأتدبر امري لوحدي مهما حدث، الثمن الذي علي ان ادفعه على كل حال هو ان اكون مبعدا، افضل ان اشحن الى الجحيم من ان اكون عبئا عليك، سأستطيع هناك ان احك جلدي بسلام على الأقل..».

كنت وحيدا هناك عندما طرأت برأسي الفكرة الغريبة بانني انا ايضا مصاب بالجرب. لكنه جرب دون حكة، جرب لا يعلن عن نفسه فيزيقيا. كان موجودا بالرغم من ذلك هناك، هناك حيث كل جرب يعود الى اصله ويعطي نتائجه. ولكنني كنت ضجرا من عدم تمكن احد من مشاهدتي متلبسا بجرم الحكة المشهود على الرغم من انني لم افتر عن القيام بها ليل نهار، بحمى وبسعار شديدين ودونما توقف. مواصلا القول لنفسي مثل بول: «من اذن سينقذني من سكرات الموت» وبجاميع من البشر تكتب لي من العالم كله لتقديم الشكر لي على المواساة والشجاعة التي تمنحهم اياها كتاباتي، اية سخرية! لقد اعتبروني انسانا «محررا» بينما كنت اقاتل طيلة الوقت ضد شبح، ضد جثة، ضد سرطان ملك علي عقلي وظل يمارس سطوة اكثر خطرا من اي مرض جسدي.

Twitter: @ketab_n

كان ينبغي ان اعثر على المرأة التي كنت قد اخترتها لرفقتي، لكي اتقاتل معها هي نفسها بعد وقت قصير. كنت مقتنعا بانها ستقدر وتقاسمني الحياة الطيبة. لكن الامر لم يكن منذ البداية سوى جحيم. جحيم ولعنة. والأسوأ من ذلك فان جيراننا كلهم كانوا يعتبرونها امرأة نموذجية، مفعمة بالحيوية والنشاط، طيبة وحارة، اما جيدة وامرأة ممتازة من الداخل، مضيفة كاملة الاوصاف! آه! ليس سهلا ان تعيش مع رجل يكبرها بثلاثين عاما! خصوصا مع كاتب مثل هذا الـ (هنري ميللر)! كاتب حتى النهاية! الا ان جميع الناس كانوا بالرغم من ذلك يعرفون بانها تريد هذا المخلوق المسكين. آه! لقد كانت امرأة شجاعة! ألم تحقق تجاربي السابقة بشكل يدعو للرثاء؟ هل هناك امرأة واحدة في العالم قادرة على التفاهم مع فرد مثله؟ حول هذه النقطة كانت تنتهي مناقشاتنا عموما. ما الحل؟ لم يكن ثمة حل. كنا محكومين باعادة هذا المشهد حد الغثيان، حتى يسقط احدنا متحللا مثل جثة عفنة. لا يمر يوم واحد بسلام! يوم واحد من سعادة، من جهتي على الاقل. حالما تفتح فمها فالحرب الحرب! كان الحل بسيطا. يكفي ان نقطع العلاقة، ان نطلب الطلاق، ان ننفصل! والطفلة اذن؟ لن ابدو غبيا لو طالبت بالاحتفاظ بالطفلة امام المحكمة، «كيف، انت؟ رجل بمثل شهرتك؟» هكذا كنت ارى القاضي واللعاب يسيل على شفتيه. لم يكن هذا ليحل من الأمر شيئا. كان يجب ان نستمر، حتى النهاية نستمر بقتالنا. كلا. «نستمر» ليست الكلمة الملائمة، ان نسوي الأمور حتى النهاية.

بماذا نسويها؟ بمكواة؟ التسوية؟ ها هنا كلمة احسن. استسلامي ايضا؟ ان اعترف بانني متعب؟ ان اترك نفسي مداسا ثم اتظاهر بعدم الشعور بأية وطأة؟ واتظاهر بانني ميت؟.. ام هل اقنع نفسي ان كل شيء يسير على ما يرام.. كل شيء هو الرب! كل شيء حسن. لا احد غير الله كلي الطيبة، هو انوار ومحبة. ان اؤمن.. مستحيل! لا نؤمن بهذه الطريقة. نقطة! هذا لن يكفي مطلقا. ينبغي ان تتوفر لدينا المعرفة، بل الاكثر منها: ان نعرف بأننا نعرف.

ماذا سيحدث اذا وجدتموها رغما عن كل شيء في مواجهتكم ساخرة، مزدرية، تضحك وتشنع عليكم وتهزأ بكم. وهي تكذبكم وتحرف كلامكم وتشوهه وتنتقصكم، وتقول ابيض عندما يكون اسود، وهي تبتسم باحتقار وتنفث سمومها كأفعى وتشاجركم وتنهشكم وتنثر

Twitter: @ketab_n

اشـواكهـا امـامكم مثل القنفذ. طيب. ايه! حسن ينبغي ان اقول ان كل شيء كان جيدا، وبان الرب هو نفسه من كان يتجلى، وبأن ذاك هو الحب ولكن بالمقلوب.

اذن؟ جيـد. يجب ان تنظـروا عبر السلبي لترا الايجـابي. حاولـوا بانفسكم طريقـة التـمارين الصبـاحيـة، قبـل ان تستقيمـوا ضعـوا لخمس دقائق الاقدام في الهواء والرأس الى الاسفـل. اذا لم ينفـع هذا، انحنـوا على ركبكم وصلوا، هذا سينفـع، يجب ان ينفـع. لقد خدعتم هنـا. اذا فكـرتم بانـه يجب ان يكـون نافعا فسوف لن يكون نافعا، ولكن (يجب) في النهـايـة ان يكون نافعا. واذا لم ينفع فسوف تبقون تحكون بالطريقة اعلاه! ماذا قال صديقي آلن واتس؟ قال: «عندما يكون واضحا انه لا يمكن ابطال الحكة بالحك فستختفي لوحدها».

لدى عودتي الى البيت. توقفت في طرف الغابة حيث حوض الماء الكبير المهجور الذي ترده الخيل، لارى فيما اذا كانت الاواني والقدور في مواضعها. غدا اذا كان الطقس جميلا فان صغـيرتي فال ستستمتـع باللعب، متخيلة انهـا تعـد وجبـة فطور اخرى لي، وربما ساعطيها توضيحـات بصـدد الطـريقة الافضل لطهو البيض وقديدة الخنزير ولسلق الشوفان، اولعمل شيء اخـر تقـرر هي التظـاهـر بطبخه. التظاهر. التظاهر ان تكون سعيدا، التظاهر بانك حر، التظاهر بانك الرب، التظاهر ان كل شيء شفاف.

كنت افكر بتير يكان: «سوف انحني على ركبتي مصليا اذا ارادت» اي غباء! لمَ لمْ يقل: «سأرقص، سأصفر، ساغني، ساقف على رأسي اذا ارادت» ارادت! كما لو انها تريد شيئا اخر غير سعادتها.

كنت افكـر بمعلمي الـ (زن)[1]، بمعلم غريب من بينهم يقـول: «هـل تضجـركم عقولكم. لا بأس. ضعوها امامي ولنلق عليها نظرة» او شيئا بهذه النكهة.

اما تير يكان المسكين، فسوف لن تدوم حكته وقتا طويلا اذا ما تجسد امامه احد هؤلاء الرهبان البوذيين وضربه ٣٩ هراوة كلما انشب اظافره بجلده حاكا. ومع ذلك فانكم تعرفون

(١) زن: اتجاه ياباني للفلسفة البوذية.

Twitter: @ketab_n

بانها ستكون لدى عودتكم الى المنزل امامكم، وستجعلكم في غاية العصبية بعد وقت جد قصير. سيكفي ان تقول: «ها! ظننتك تشتغل في حجرتك» لكي تقوموا بهجوم مضاد: «هل يتوجب علي العمل طيلة الوقت! اليس من حقي الترويح عن نفسي من وقت لآخر!» انها المعركة، الى الامام! سيبدأ الريش بالتطاير، ولن تستطيعوا النظر عبر السلبي، سترون احمر ثم اسود ثم اخضر ثم ارجواني. يحدث ذلك خلال صباح خلاب الجمال! هل انتم من قام بذلك؟ هل هي؟ خراء على من قام بذلك! لنر اي موضوع جديد لدينا لشجار هذا المساء، الرب من يقوم بذلك! الرب وشخص آخر.

اعود الى المنزل منفوشا مثل قنفذ. كانت جوان وارتون عندنا، ذهب تير يكان لرؤيتها ورضيت. كم يكون الجو مختلفا عندما تكون جوان عندنا! يمكن القول ان الشمس تنساب عبر جميع الشبابيك بضوء وحرارة متزايدتين. لا يمكن لاحد ان يقوم بشجار مع شخص مثل جوان وارتون. ليس انا في جميع الاحوال. القيت نظرة على زوجتي، هل هي على ما يرام؟ لنكن نزيهين ونجيب بكلا. في البدء لم تكن عدائية، كانت مثل اي كائن انساني في حالته الطبيعية. لن اذهب الى القول باني قد رأيت الاله فيها. كلا. الا انه كان ثمة انفراج.

ـ سوف تهتمين به. اقول.

ـ بلى. تقول جوان. يبدو انه منشغل تماما بالامر، وبالطبع فان هذا لن يكون سهلا.

اوشكت ان اقول لها: «بداية لغة ستكلمينه؟» ولكن الجواب جاء من تلقاء نفسه «بلغة الرب طبعا».

يمكن ان تجري الامور على ما يرام مع شخص سواه. لكن معه..؟. يستطيع الرب ان يحصل على جواب من حائط صخري، لكن العقل الانساني اثخن في بعض الاحيان واشد صلابة من جدار فولاذي. لقد قال الهندوس: «اذا اراد الله ان يختفي فسيختار الانسان مخبأ». في ذلك المساء عندما كنت اصعد سلم الحديقة لالقي النظرة الاخيرة حوالي صادفت جوان وهي تهم بالدخول. كانت تحمل فانوسا بيد وكتابا بالاخرى. كانت تبدو وكأنها تطفو في الهواء. كانت قدماها ثابتتين حقا، الا ان جسدها كان دونما ثقل. وجدتها اكثر جمالا واكثر تألقا. رسولة الضوء والحب، السلام والسكينة. منذ اليوم الذي تعرفت فيه عليها، في مكتب بريد «بيك سور» وحتى الآن فان تغيرات اكيدة قد طرأت عليها.

Twitter: @ketab_n

وايا كان ايمانها وطريقتها في ممارسته فقد احدث تغيرا جسديا لديها كما تغيرا عقليا وروحيا. لو كنت تير يكان آنذاك لوجدت نفسي قريبا من الاكتمال. لسوء الحظ فان الامور تجري بطريقة معاكسة بينهما كان فشلا كاملا. كان اخفاقا من البداية حتى النهاية، روى لي تير يكان في اليوم التالي تفصيلات لقائهم، لم يكن ساخطا فحسب، انما كان مغتاظا تماما.

- اي غباء!. كان يصرخ. لست طفلا، لست ابله ولا غبيا لتتعامل معي بتلك الطريقة.

تركته ينفس عن غيظه، وعندما هدأ اخذ يروي لي التفصيلات او ما كان يبدو له مهما منها على الاقل. لم يكن الامر يتعدى العلم والصحة!. اكد لي انه بذل قصارى جهده كي يفهم ما كانت تقوله جوان وارتون له، ويبدو انه لم يفهم اي شيء تقريبا. ما كانت تقوله كان صعبا على مداركه، لقد اعطته كتابا لماري بيكر ايدي، واصرت على ضرورة ان يقرأه وان يتأمل بعض افكاره، واشارت الى بعض تلك الافكار الجديرة بالتأمل. بالنسبة لتير يكان فان الكتابات المقدسة لها بالطبع نفس قيمة كتب الالغباء، وحتى اقل من ذلك. لقد امضى كل حياته وهو يلغي ويستهزيء ويفند هذا النوع من «التوافه». لم يكن ينتظر من جوان وارتون شيئا سوى المباركة سوى العلاقة السحرية التي ستساعده على التعزيم على الشيطان الذي يدفعه للحك ليل نهار. ان فهما روحيا لفن الشفاء كان اقل همومه شأنا. ولنقل، لتقريب الحقيقة، بانه كان يرفض رفضا باتا الايمان بامكانيته الشخصية على الشفاء وبأن هذا فقط هو الشرط اللازم لشفائه.

عندما رأيت جوان بعد ذلك ابلغتها برد فعله، وقد قالت لي بانها تركت الكتاب له غير آملة بهدايته الى (العلم المسيحي)، وانما لكي تصرفه عن التفكير بنفسه بضعة دقائق. كان لديها انطباع انها قد فهمته - هو وفرنسيته - وانها تتوقع ان ترجع في المساء ذاته او اي مساء آخر اذا استدعت الضرورة. لقد ارتكبت دون شك خطأ سايكولوجيا باعطائه كتاب ماري بيكر ايدي، وقالت عن حق بانه اذا كان لديه على الاقل قليل من الاخلاص والعفوية فما كان يجب ان يبدي رد الفعل الكبريائي ذاك. ان رجلا على هذه الدرجة من اليأس سيجد تعزية بأيما شيء، حتى اذا ذهبت هذه التعزية بعكس المقصود منها.

Twitter: @ketab_n

دفعني الحوار حول موضوع الكتاب ان القي انا بدوري نظرة عليه. كنت آنذاك قد قرأت اشياء لا بأس بها حول ماري بيكر ايدي، لكنني لم اقرأ الكتاب نفسه. لقد اكتشفت منذ البداية تقريبا ان مفاجأة جميلة بانتظاري في الكتاب. لقد ادت بيكر لي خدمة جلية، لكي تسقط ملاحظاتي النقدية بشأن موضوعها. لقد انتهيت الى ان استنتج انها روح عظيمة جدا. نعم. وانسانية جدا. انسانية حتى اعماق روحها المليئة بالانوار الكبيرة المتحولة، ذات الكشوفات الكبيرة التي يمكن لكل منا امتلاكها اذا كان كبيرا ومستعدا لاستقبالها. لقد كان الأمر بالنسبة لتير يكان كما لو ان امله الاخير بالخلاص قد سرق، لقد خارت قواه كما لم تخر مطلقا وفترت همته وغدا اكثر بؤسا ومدعاة للرثاء. كان ينوح طيلة الاماسي بطريقة تفتت الكبد. قبل العشاء وبمثابة مشه كان يمهد لنا بمشهد جروحه.

ـ هذا غير انساني. كان يقول. عليكم ان تفعلوا شيئا. ثم يقول بتوسل:
ـ لو استطعت ان آخذ حماما حارا فقط!.

لم يكن لدينا حمام. لم يكن لدينا شراب اعجازي. ليس لدينا سوى الكلمات. الكلمات الفارغة. لم يكن اكثر من حطام. حطام تعيس مشتعل تحت رحمة الشيطان.

امسية يتيمة بقيت في ذاكرتي بوضوح قبيل انهياره النهائي، احتفظ بها صافية لأنه (وكنا قبل الامسية بقليل نجتمع حول الطاولة) قد قام بحركة سخط لست مستعدا لنسيانها، بصدد جلوس الصغيرة «فال». بدأت الصغيرة التي ازعجتها نقاشاتنا باللعب بسكين وشوكتها لتوجه الانتباه نحوها. ثم اخذت فجأة وعلى سبيل اللعب قطعة الخبز الموضوع بجانب تير يكان، فما كان منه الا ان سحبها بغضب ووضعها على الجانب الآخر من صحنه. لقد ادهشتني حركة انزعاجه هذه اقل من نظرته الى الطفلة، نظرة مليئة بالكراهية والغضب، نظرة قاتلة. نظرة لن انساها ابدا ولن اسامحه عليها. بعد ساعة او اثنتين ذهب لنضع الطفلة في سريرها، وعند رجوعنا اندفع بقصة طويلة سألخصها باختصار. لماذا اختا بدقة تلك الامسية لرواياتها؟.. انني اجهل الامر. كانت القصة تتعلق بطفلة ايضا، بصبي لا يتجاوز عمرها الثمانية اوالتسعة سنوات. شغلت حكايته الامسية كلها. قام في البدء بسر

Twitter: @ketab_n

استطرادات كثيرة، كنت اتابعه وهويطوف في شوارع كثيرة وعندما اشار الى شارع (جوفروا) فهمت انه سيدخل الى صلب الموضوع، كان شارع جوفروا زاخرا بالنسبة لي بالعديد من الذكريات، عندما كنت اتسكع فيه فان احداثا ذات طبيعة خاصة كانت تحدث لي، احداثا

تختلج في الداخل ولا نفكر بتدوينها لانها خاطفة وغير مرئية وجد قريبة من مصادرها. فهمت فجأة، ليس دونما صدمة، ان تيريكاني كان يتابع امرأة وابنتها. دخلت المرأة للتو في شارع جوفروا متطلعة الى الواجهات كما يبدو، متى ابتدأت تلك الملاحقة؟ باي وضعية؟ هذه اسئلة قليلة الاهمية، بيد ان ما جعلني يقظا ودفعني للاصغاء اليه هو فضولي للتعرف على مشاعره لحظتئذ وهو يقوم بتوجيه الاشارات والنظرات الى المرأة. في البدء حسبت ان لديه مشكلة ما مع الأم وصفها باختصار وبلباقة وبتلك الحذاقة التي يجيدها الرسامون، بتلك الخفة التي يتقنها تيريكان وحده لوصف هذا الصنف من النساء. وببضعة كلمات عراها من ثوبها المبتذل ومن هيئتها شبه الامومية لسيدة تتظاهر بالتطواف في الشوارع مع حملها البريء. كان قد تخيل مع من كان يتعامل في تلك الثانية، حيث المرأة تتلفت بارتباك في الوقت الذي كانت تتغلغل في الممر. آنذاك كان قد فهم بانها «تعرف» بمتابعته لها.

كان شاقا الاصغاء اليه وهو يحكي عن البنت الصغيرة بنشوة. ماذا كان يثيره فيها؟ مظهر الملاك الضال الذي تحمله!. الكلمات التي استخدمها في وصف البنية كانت محددة بدقة شيطانية، جد موحية بحيث انني توصلت الى ان تخيلها مرغما، معجونة بالرذيلة، ولربما كانت بريئة الى الحد الذي.. ارتعدت وانا افكر بما يدور في رأسه. ما تبقى لم يكن غير لعب. كان يكمن امام واجهة ملأى بدمى العرض والملابس الرياضية، بينما كانت المرأة والطفلة تتجولان امام احد المخازن التي تعرض دمية بفستان ابيض رائع، وكانت الطفلة تفتح عينيها على سعتهما امام الواجهة. القى نظرة سريعة على المرأة غامزا غمزة ذات دلالة الى الصغيرة. اجابت المرأة برضى خفي، خافضة عينيها للحظة، ثم ناظرة اليه والى ما يقع وراءه بثبات، ثم ساحبة الصغيرة من يدها. تركهما تجتازان مسافة معقولة وانطلق اثرهما. قبل خروجهما من المخزن توقفت المرأة لتشتري ملبسا. لم تقم باشارة جديدة سوى اشارة من رأسها الى اقدامه، وشرعت بعدها بما تشير كل الدلائل الى انه مجرد تطواف بريء. بدا لمرة

Twitter: @ketab_n

او مرتين ان البنية كانت تريد التلفت مثل اي طفل يسترعى انتباهه خفق اجنحة حمامة او اصطفاق لعبة من اللعب. لم تكونا تستعجلان الخطو. ام وابنتها تتجولان بهدوء كما لو لاستنشاق الهواء او لرؤية المخازن دون ان تبدو عليهن اية ظاهرة غريبة. تستديران من شارع الى آخر وآخر. كانتا تقتربان قليلا قليلا من فولي ـ بيرجير، لتصلا في نهاية المطاف الى احد الفنادق. فندق باسم كبير ـ اقول ذلك دون توقف لان اسمه ذكرني بالفترة التي قضيت فيها اسبوعا كاملا في سريري اقضي الوقت مستلقيا اقرأ كتاب «سيلين» المسمى «رحلة في آخرة الليل». لم تلق المرأة اي نظرة لدى دخولها الفندق لتر فيما اذا كان تبعها ام لا. لم يكن مفيدا ان تفعل، فقد ترتبت المسألة تخاطريا في شارع جوفروا. انتظر لحظة قبل ان يهم هو ايضا بالدخول عليه ان يكبح جماحه، مشى مهتزا نحو الاستعلامات وطلب غرفة. وحينما كان يملأ قسيمة الفندق، وضعت المرأة مفتاح غرفتها على المكتب امامه بذريعة حاجتها لاخراج شيء من حقيبتها. ولم يلتفت حتى لرؤية الرقم. وليعوض عن غياب الحقائب فقد اعطى للشغيل عربونا سخيا قائلا له ان لا اهمية لاستجلاب الحقائب. ثم وثب الى الطابق الاول وكان قلبه قد فقد صوابه. تسلق السلم حتى الطابق الثاني مجتازا الرواق بسرعة بحثا عن الغرفة ليلتقي وجها لوجه مع المرأة، وبالرغم من انه لم يكن ثمة احد في الرواق فانهما لم يتوقفا الاثنان. تقاطعا مثل غريبين، كما لو انها تذهب للمغسلة ويذهب هو الى غرفته. وحدها النظرة التي القتها عليه، النظرة المعبرة قد بلغته بالرسالة التي ينتظر: «انها هنا». ذهب نحو باب غرفتها انتزع المفتاح الذي ابقته في الباب ودخل.

في هذه اللحظة من القص توقف عن سرد البقية. عيناه تتراقصان بفرح. كنت اعرف بانه ينتظر مني سؤاله: «ومن ثم ماذا حدث؟» كنت اناضل كي لا اكشف له عن مشاعري الحقيقية، الكلمات التي كان ينتظرها لم تخرج ابدا. لم اتوقف عن التفكير بالبنت الجالسة على طرف السرير، ربما نصف متجردة، تقضم قليلا من الكيك. ربما قالت لها الام وهي تغلق الباب وراءها: «ابقي مكانك يا صغيرتي، سأعود حالا».

في النهاية، في نهاية ما بدا لي ابدية. قبلت ان اسأله.

ـ اي.. واذن؟.

Twitter: @ketab_n

ـ واذن؟ . صرخ بعيون ذات بريق مجرم . كنت عندها بالطبع ! .
عندما تلفظ بتلك الكلمات احسست ان شعري كان يقف . لم يعد تير يكان هذا الذي يقف امامي ، انه الشيطان .

كانت الامطار تتوالى ، والرشح يتزايد ، اصبحت الحيطان رطبة اكثر فأكثر ، وحشرات حمار القبان في تكاثر مطرد . كان الافق آنذاك متلبدا تماما والريح شديدة خلف بيتنا كان ثمة غرفتان صغيرتان تتواجهان مع ثلاث اشجار يوكالبتوس ضخمة يصبن بالجنون اثناء الزوابع ويتقوسن تقوسا بينا . في الحالة المدمرة التي كان تير يكان بها فان هاته الشجرات الثلاث ، هاته الجنيات ذوات الاذرع الالف كن يلقين رعبا شديدا في نفسه . كانت نظراته تلتقي حالما كان يغسل وجهه بحائط من المياه ، بغابة من اشجار ملتوية ، مطوية على وشك الانكسار ، وما كان يزيد طينه بلة هو ذلك النواح والزعيق الذي تطلقه الريح ، وصفير وقرقعة جنيات البحر التي لا تهدأ مطلقا . سير ى شخص عادي هذا كمشهد رائع للعظمة ، مشهد مسكر يدفع الى اختبار المشاعر اللذيذة للضآلة وعدم القدرة . كنا نحس باننا اصغر من قشة . ان شخصا سيخاطر بالخروج اثناء العاصفة العنيفة سيسوى دون ريب بالارض . في عنف الريح ذاك كان ثمة شيء اخرق . كان يجب الانتظار . قوة الريح سترهق الريح نفسها .

لكن تير يكان لم يعد قادرا على الانتظار بعد . لقد انتهى . عند حلول المساء هبط الينا قائلا بانه لن يحتمل لحظة اخرى هذه الريح .

ـ هذا جحيم عاصف . كان يصرخ . لا يوجد مكان في العالم يمكن ان يكون اشد مطرا من هذا! انه الجنون ! » .

ثم انفجر اثناء العشاء بالعويل وتحدث من جديد عن آلامه . توسل الي ان اقوم بعمل ما لمساعدته . كان يترافع امامي متوسلا كما لو كنت حجرا . كان سماعه تعذيبا حقيقيا .

ـ ماذا تريدني ان افعل؟ . سألته . قل لي ماذا يمكنني ان افعل؟ .
ـ خذني الى مونتيري ، ضعني في مستشفى ، انقلني فقط من هذا المكان .
ـ حسنا . قلت . سنغادر حالما نستطيع نزول الشاطيء . القى نظرة قلق مجنونه «ماذا يعني هذا؟» شرحت له بان الطرقات مقطوعة بالتأكيد الآن بسبب الركام والانهيارات ، وان

Twitter: @ketab_n

سيارتي معطلة، الامر الذي فاقم يأسه.

ـ فكرا! يجب ان تكون هناك وسيلة! هل تريد دفعي الى الجنون التام!.

لم يتبق سوى امر واحد: الذهاب مشيا على الاقدام صباح الغد وصولا الى الطريق الذي يقود الى الشارع العام وترك ملاحظة داخل صندوق البريد لكي يوصلها موزع البريد الى ليليك. كان توزيع الرسائل يجري ليل نهار، وفرق الطرق والجسور تقوم بازالة الانقاض الجديدة عن الطرقات. كنت اعرف ان ليليك سيجيء الى المنزل اذا ما استدعت ضرورات انسانية. كنت اصلي للسماء لو ان تنينا يقتلع الانقاض والانهيارات التي تغلق الطريق السفلي. خرجت لارسال الرسالة وقلت لتير يكان ان يستعد للخروج. كنت قد طلبت من ليليك في الرسالة ان يصلنا في الساعة السادسة او الخامسة والنصف اذا امكن من الصباح التالي. وكنت افكر بان العاصفة ستفقد قليلا من شدتها في تلك الساعة كما ان فرق الطرق والجسور ستقوم بتنظيف الطريق قليلا. في ذلك المساء، مسائه الاخير، رفض تير يكان العودة الى حجيرته. وفضل قضاء الليل على كرسي. كنا قد اطلنا العشاء ما امكن مقدمين له الشراب، مولين له افضل ما لدينا، وعند ساعات الصباح الاولى تمنينا له نومة هانئة. لم يكن لدينا سوى تلك الغرفة التي يشغل سريرنا وسطها. تسلقناه وحاولنا النوم. كان المصباح الصغير الموضوع فوق الطاولة يومض الى جانب تير يكان، وكان يتكوم داخل المقعد الكبير ملفوفا بمعطفه وبلثام بينما كانت قبعته تغطي العينين. النار خامدة وليس من شباك واحد مفتوح. يبدأ البرد والرطوبة باجتياح الغرفة. الريح تصفر حول المنزل، وغدا المطر اقل قوة. كان النوم مستحيلا بالطبع، بقيت مستلقيا، لا اتحرك الا اقل الحركات الممكنة. بين وقت وآخر كان يفلت منه نواح وهو يقول بصوت واطيء:

ـ يا الهي، يا الهي متى ينتهي كل هذا؟ ام هذا هو العذاب؟.

نحو الساعة الخامسة صباحا نهضت من سريري. اشعلت المصباح ووضعت القهوة على الموقد وارتديت ملابسي. لم يزل الظلام مخيما، هدأت العاصفة وليس سوى ريح قوية اعتيادية تنفخ المطر.

عندما سألته كيف صار يشعر، تأفف. كان يأمل ان تتبقى له القوة الكافية ليصل الى المستشفى. كنا نشرب قهوتنا الحارة جدا عندما استنشق رائحة قديدة الخنزير والبيض، بدا

Twitter: @ketab_n

اذن وقد تعافى للحظة.

ـ اعبدها! . قال داعكا يديه، ثم قام بحركة فزع.

ـ كيف سنعرف بوصول ليليك؟.

ـ لا تقلق، سيأتي. قلت. حتى لو توجب عليه اجتياز الجحيم فسيهرع لنجدتك.

ـ نعم انه شخص لطيف وصديق حقيقي.

ارتدت زوجتي خلال ذلك ملابسها وجلست الى الطاولة، اشعلت الفرن وبدأت بمعالجة البيض بالقديدة.

ـ سترى، سوف يسير كل شيء على ما يرام. قالت له. سيكون ليليك هنا خلال بضعة دقائق.

كانت تتحدث اليه كما تتحدث الى طفل ـ لا تقلق يا روحي، هنا ماما، لن يحدث لك شيء يا كبدي!.

وبحركة مسرحية قمت باشعال فانوس، وصعدت المنحدر المشرف على الشارع لاقوم بالتلويح لليليك. كنت اسمع هدير سيارة عندما كنت اتسلق الجرف، ربما كانت في مستوى ادنى من الجرف، ربما في المنعطف بالقرب من منطقة «اروزفلت». كنت اوازن فانوسي، ومن اجل تسلية نفسي اطلقت صرخة عظيمة للفت انتباه ليليك. كان عليه ان يرى ضوئي لانني قد سمعت توا زعيق زاموره. بعد بضعة دقائق ظهرت السيارة لاهثة نافثة مثل تنين جريح.

ـ يا الهي العظيم. صرخت. اي حظ! نجحت اذن! عظيم! وربت على كتفه بحرارة.

ـ لقد تعثرت في المنحدر! انني لاعجب كيف لم اكترث بكل هذه الصخور المتطايرة في الهواء! لحسن الحظ فقد كان معي معول داخل السيارة. كيف حال تيريكان؟ هل استيقظ؟.

ـ استيقظ! لكن المسكين لم يستطع النوم، لننزل ونشرب قدحا من القهوة، هل افطرت؟.

Twitter: @ketab_n

لـم يكن قد افطـر بعـد، بل لم يشـرب قدحا من القهوة. دخلنا لنجد تير يكان مستغرقا متلذذا بالطعام. كان يبدو وقد تحسن قليلا. عندما حياه ليليك طفرت دموعه من عينيه.

ـ انها النهاية. قال. حسن ان تجيء، انت قديس!.

عندما حانت لحظة الرحيل انتصب تير يكان متحيرا مترنحا، تقدم الى السرير وانهار عليه بطوله.

ـ لنذهب، هيا.. هيا. قال ليليك. لن تغير رأيك الآن؟.

رفع تير يكان نحونا وجها باتسا.

ـ لا استطيع المشي. قال. انظروا! واشار الى ورم بين ساقيه.

ـ ما هذا؟ صرخنا بشكل جماعي.

ـ خصيتاي! انهما متورمتان!.

كان ذلك صحيحا، بل انهما كانتا حجرين.

ـ سننقلك الى سيارة ليليك.

ـ انا ثقيل للغاية. قال تير يكان.

ـ كلا. ابدا. قال ليليك.

وضع ذراعيه حول اكتافنا، ضممنا انا وليليك ايدينا تحت فخذيه. كان يزن طنا. رفعناه برفق وبألف احـتراس حتى مؤخـرة ممشى الحـديقـة ومنـه الى السيـارة. كان ينوح مثل ثور يحتضـر. «بـرفق، برفق، ستنتهي، خذ نفسـا عميقـا، كز على اسنـانـك، الشجـاعـة، الشجـاعـة!» صعـدنـا بحـذر شديد الطريق الملتوية ونحن نرى في الممر الخراب الذي قذفته العاصفة. كانت عينا تير يكان تتسعان وتزدادان اتساعا. وصلنا اخيرا الى الجزء الاول من الشـارع، كان ثمـة منحـدر اكثر وعـورة تنتشـر عليه انقاض متناثرة، ثم وصلنا الى الشارع العام، وقد ادركت حينئذ ما يتوجب على ليليك القيام به بعد قليل.

عنـدمـا توقف المطر كان الفجر يبزغ. كان يجب التوقف كل بضعة امتار لازالة الصخور والاحجـار المتنـاثـرة على طول الشـارع. وصلنـا في النهـاية الى لافتة وقرأنا: «انتبه لتساقط الحجـارة. منعطفـات خطـرة. خطـر الانهيـارات حتى ٧٥ كيلومترا». كل هذا صار خلفنـا

Twitter: @ketab_n

الآن. استرجعت نزهات تيريكان بين الجبهات اثناء الحرب، مزودا بحقيبتين وبجامبليك! وبالمقارنة مع هذا فقد بدا لي ما يجري اللحظة غير واقعي ودون كثافة.

ـ كيف حال خصيتيك الان؟ سألته.

ـ جسيما.

ـ يبدو لي انهما في تحسن.

ـ تماما! قال ليليك. انه امر يتعلق بالاعصاب! منعت نفسي من الضحك. اعصاب! كلمة مثيرة لوصف هموم تيريكان! عند وصولنا الى مونتيري اوقفنا السيارة لكي نفتش له عن مكان نسقيه فيه قدحا من القهوة. الشمس تسطع بقسوة والسقوف تلتمع. استعادت الحياة مجراها الطبيعي، لما يزل بعد بضعة كيلومترات لوصولنا لمستشفى (كونتي) في (سالیناس). كان تيريكان يجس مرة اخرى خصيتيه. اختفى الورم تقريبا.

ـ اقول لكم..

ـ هاه! قال تيريكان. انه مضحك، كيف تفسرونه؟.

ـ العصبية. قال ليليك.

ـ الهموم. قلت.

ها قد ادركنا المستشفى، لم تكن ذات مظهر قبيح كما تخوفت. كانت تبدو في الحقيقة من الخارج لطيفة. كنت اهنيء نفسي انه ليس انا الذي سأنقل الى المستشفى. دخلنا كان الوقت مبكرا. بيانات عادية. اسئلة. ايضاحات، استمارات. ثم الانتظار. لو كان هناك من يحتضر فسيقولون لك رغم ذلك ان تنتظر. بعد مضي بعض الوقت سألنا عن وقت قدوم الطبيب. كنت اظن باننا اذا وضعنا تيريكان على السرير فسنرى الطبيب على الفور. كلا.. رؤية الطبيب اولا ومن ثم الى السرير، اذا كان من سرير شاغر! عندما تبينا الامر قررنا الذهاب لتناول فطور جديد. صالة طعام مزعجة تطل على المستشفى (هذا على الاقل ما بدا لي). طلبنا ثانية بيضا بالقديدة وقهوة. كانت القهوة فظيعة وخفيفة، لكن تيريكان وجد مذاقها جيدا، حتى انه اشعل (غلواز ازرق).. مبتسما. كان يفكر دون شك ان سريرا

Twitter: @ketab_n

مريحا بانتظاره، وعناية فائقة هنا وانه سيضع نفسه بين ايدي جوقة من الملائكة الرحيمين. وفي نهاية المطاف وصلت لحظة الدخول الى الجزء العيادي من المستشفى، وقد كانت مثل جميع الاماكن من هذا النوع باردة، عارية، مليئة بالآلات المعدنية، سابحة بروائح المعقمات. تأخذ جسدك المسكين، وتسلمه للتفتيش. انت شيء وجسدك شيء آخر. ستكون محظوظا اذا اعادوه لك. كان الطبيب يطبطب على تير يكان العاري مثل دودة، كان يطبطب عليه بحركات عصفور نقار. اوضحنا للطبيب بأنه يعاني من الجرب. لا اهمية لذلك، ينبغي اولا رؤية فيما اذا كان ثمة شيء آخر، سل، حصاة، ربو، التهاب اللوزتين، تشمع الكبد، فقر الدم، ذات السحايا. لم يبد الطبيب سيئا. كان مستعدا للثرثرة، بل كان يتحدث الفرنسية كذلك، وبشكل عام كان فرحا.

كان تير يكان يبدو فرحا بدوره. انتبهنا اخيرا اليه، ثمة شيء في ملامحه يتعذر تحديده يشير الى توقعاته بأن يجد الطبيب مرضا جديا له، اكثر جدية من جربه، كان مثيرا للشفقة وهو عار، حصان مشوه، ليس لانه ضعيف ومتكرش ومغطى بالجروح وتخثرات الدم فحسب، بل لان جلده كان يعطيه مظهرا معتلا، جلده المليء بالبقع كورقة تبغ، الجاف، الفاقد اللون واللمعان. كان يجعلنا نفكر مرغمين بأولئك المتسكعين الذين يشاهدون في شوارع «باويري». كان جلده يعطي انطباعا بانه لم يكن له مطلقا علاقة بالهواء والشمس، وانه كان وسط غابة من الدخان. انتهى الفحص السريري. ليس ثمة خطورة عدا انه مرهق قليلا، مصاب بالانيميا، صفراوي، قلبه جد ضعيف غير منتظم الخفقان، بينما ضغطه مرتفع جدا ولديه ارتخاء في المفاصل. حان الآن وقت الجرب. كان الطبيب يرى بانه يعاني من الحساسية اومن عدة حساسيات. الحساسيات هي مجال اختصاص الطبيب وهنا مكمن يقينه. لم يقل اي واحد منا كلمة، حتى تير يكان نفسه كان يعرف معنى الحساسية ولكنه لم يعلق عليها اية اهمية، انا وليليك كذلك. لا يتحدث الجميع اليوم سوى عن الحساسية، غدا سيتحدثون عن امر آخر. هيا اذن الى الحساسيات!.

من اجل ان يقوم الطبيب بالفحص فقد اعد انابيب اختباره، وحقنه وابره ونصال شفراته وما لا اعرف ماذا ايضا، ثم امطر تير يكان بوابل من الاسئلة.

Twitter: @ketab_n

ـ كنت مدمنا على اخذ المخدرات، اليس كذلك؟.

هز تير يكان رأسه بالموافقة.

ـ ماذا كنت تأخذ؟.

ـ كل شيء ـ قال. ولكن منذ سنوات.

ـ الافيون؟.

اعلن تير يكان دهشته.

ـ وكيف عرفت؟.

ـ لقد عالجت مئات الحالات. قال الدكتور وهو يلامس شيئا في ظهر تير يكان ثم التفت اليه ليسأله بغتة.

ـ كيف توقفت عن تعاطيه. اخبرني؟.

ـ بجهد ارادي. قال.

ـ ماذا؟ ماذا؟. قال الطبيب. اعد ما قلت؟.

تير يكان يعيد:

ـ بجهد ارادي، لم يكن سهلا، كدت ان افشل.

ـ حسنا، اذا كان صحيحا ما تقول، قال الطبيب وهو يأخذ يده، فانت الاول على حد علمي من يقوم بذلك لوحده.

احمر تير يكان مثل رجل منح وساما لمأثرة لم يقم بها. بعدئذ بدأ الطبيب يطبطب على ظهره، ابتدأ من الكتف الايسر باتجاه الكتف الايمن وهو ينزل بانحراف الى الاسفل. كان ينتهي من واحدة من العابه، ليشرع بواحدة اخرى بعد بضعة لحظات، الاولى يلعبها بحبر ازرق، الثانية بالوردي، الثالثة بالاخضر، دواليك حتى جاء على الوان الطيف الشمسي كلها. لم يربح احد. ظهر تير يكان غير قابل للتوسع الى ما لا نهاية، وكان الرجل مغطى من العنق والرقبة. كان من الافضل ان نعلن مباراة تعادل بينهما، ونغلق الدكان لهذا اليوم!.

ما يزال هناك ثلاثون او اربعون فحصا اخر ممكنا، احدها سيكون سلبيا على حد قول الطبيب.

Twitter: @ketab_n

ـ والآن، هل اذهب الى السرير؟.

سأل تير يكان وهو يخلع قميصه وبنطاله.

ـ اي سرير؟. صرخ الطبيب منذهلا.

ـ اجل، قال تير يكان. مكان استريح به لاستعيد قواي.

ضحك الدكتور وكأنه سمع نكتة ناجحة.

ـ اننا نحتاج الآن لمزيد من الاسرة لحالات اكثر خطورة، هل تفهم؟ لست مريضا الى هذا الحد. عد بعد غد، سنستمر بالفحوصات اللازمة.

ثم خط وصفة كتب له فيها مخدرا طبيا واضاف:

ـ بوقت جد قصير ستكون على ما يرام.

شرحت للطبيب بأننا نسكن في «بيك سور» وان الرجوع لن يكون سهلا على الدوام الى «ساليناس».

ـ لماذا لا تضعونه في المدينة بعض الوقت؟. قال الطبيب. خلال اسبوع او اثنين سأشخص الحالة. ليس ثمة سبب للقلق، لقد مر بالأسوأ، انني افهم، انه خائر القوى قليلا ومفرط الحساسية.

في الخارج كنا نبحث عن بار لاننا كنا بحاجة الى احتساء كأس.

ـ كيف حال ظهرك؟ سأل ليليك وكان يضربه على ظهره، بقوة، لكن تير يكان قطب حاجبيه قائلا:

ـ كما لو كنت تحت مشواة!

وجدنا بارا قذرا. ولدى شرابنا بضعة كؤوس، كنا نتكلم عن الافيون. موضوع جذاب اذا ما تفحصنا الاشياء من الداخل. في مونتيري حجزت له غرفة في فندق «سيرا»، غرفة ذات حمام. وبالمقارنة مع حجيرته فانها ساحة واسعة، اختبرنا جميعا رقة وطراوة حشية الفراش، اشعلنا وأطفأنا المصابيح كلها لنرى فيما اذا كانت القراءة، والكتابة ممكنة تحتها بشكل مريح. علمناه كيف يعالج الستائر بيديه وطمأناه الى ان الصابون والمناشف النظيفة.. الخ ستصعد اليه يوميا، كان لحظتئذ قد تخلص من الحقيبة التي جلبها معه في البدء، اشياؤه ترتبت في خزانة الغرفة بذات النظام الذي تعود عليه مهما كان اختلاف الموضع. تنبهت اثناء الوقت الذي كان يخرج فيه مخطوطاته وخشبة الكتابة ومسطرته الى ان

Twitter: @ketab_n

الطاولة التي كانت بالقرب من السرير جد ضيقة ولن تسمح بعمل مريح. نزلنا الى مدير الفندق وطلبنا منه غرفة اخرى اكبر حجما. وبأقل من لمح البصر نقل مستخدم الفندق طاولة مناسبة الحجم. كان يبدو في غاية البهجة، كان يتطلع حواليه كما لو انه وجد نفسه في الجنة. وكان الحمام كما يبدو هو ما يغمره باكبر النشوات. اوضحنا له بانه يستطيع ان يستحم في اي وقت يشاء دون حساب، دون ان يلتفت الى السعر كما هو الحال في فرنسا (كان هنا من جديد جانب جيد من امريكا: اي بلاد رائعة!). لم يتبق علينا سوى ان نترك له مالا وان نضمن سيارة لتأخذه من الفندق الى المستشفى.

لم اكن اتوهم الاوهام عندما قلت له «وداعا» بانها المرة الاخيرة التي اراه فيها. في غضون دقائق كان شبابه يتجدد عشر سنوات كاملة. تصافحنا ووعدته بان نلتقي خلال بضعة ايام، عندها قال لي:

ـ اظن باني سانزل لتناول قليل من خمرة البورتو[1].

تمشينا في الشارع انا وليليك بضعة خطوات عندما صادفنا (إلوود كراهام)، الرسام تبادلنا بضعة كلمات واخبرنا بأنه يذهب يوميا الى المستشفى وانه سيكون مسرورا بان ينقله معه الى المستشفى ويعيده الى فندقه.

قمنا بنصف دورة لنعود الى الفندق حيث اعلمنا بان تير يكان قد غادر منذ قليل لاحتساء (البورتو) دون شك. تركنا له اذن كلمة اوضحنا له فيها بان تحت تصرفه سيارة وسائقا.

الاحساس بانفراج الغمة الذي كنت اعيشه عند عودتي الى المنزل لا يوصف، لقد جاء الوقت الضروري للتخلص من وجوده. كانت زوجتي حبلى ببعض الكلمات على الرغم من انها احتملت المحنة افضل مني. وبعد مضي ايام اخرى فان فكرة الذهاب الى مونتيري لم تكن قابلة للاستيعاب في رأسي. كتبت اليه متحججا بعذر ما. واجابني على الفور والتو يعلمني انه في تحسن مطرد وبان الطبيب لم يكتشف سبب علته بعد، وهو يجد نفسه سعيدا في

---

(١) البورتو: خمر برتغالي حلو الطعم.

Twitter: @ketab_n

غرفته المريحة، وذيل الرسالة بملحوظة يذكرني فيها ان حساب الفندق على وشك الانتهاء في غضون ايام وانه يحتاج ايضا الى بعض البياضات.

خلال اسبوعين اخرين كنا نتبادل ملاحظات مكتوبة، وتهيأت لي الفرصة كذلك للنزول الى المدينة ولكن ليس الذهاب لرؤيته. وفي احد الايام استلمت كلمة منه.. يخطرني فيها بقراره الانتقال الى سان فرانسيسكو، آملا ان يجد عملا ليقوم به، وخلاف ذلك فانه سيسعى ان يعود الى باريس، مضيفا بوضوح شديد بانني لم اعد راغبا برؤيته. وباستلام الرسالة فقد شرعت على الفور بحزم ما تبقى من اشيائه، مع مبلغ من المال سيكفيه اسبوعين على الارجح. لن يزعجني ان يضع مسافة بيننا اكبر، كما لن يزيد ذلك من شعوري بالتخلص منه. كنت مبتهجا ان يجد هو بنفسه وسيلة ما بمبادرته الذاتية.

وحسب نصيحة ليون قمت بتطهير حجيرته. كما صرت افرط في رسائلي اليه بالمزيد من الشروحات وبتعليمات تفصيلية بصدد المطاعم الفرنسية والبارات والاماكن الاخرى ذات الاسعار المعقولة التي يمكن ان يجدها في سان فرانسيسكو، بل انني ذهبت الى حد ان اقترح عليه ـ حتى يصل بالتأكيد الى تلك الاماكن ـ بان يكتب عناوينها في ورقة صغيرة وان يسأل عنها سائق التكسي او رجل شرطة او اي مار. كما اشرت الى المكتبات ودور السينما الطليعية والمتاحف وغاليرهات الرسم.

علمت بعدئذ بانه وجد فندقا يلائمه ولكن بسعر مرتفع لم نكن قد اتفقنا عليه. وكان قد وجد بارا صغيرا يأخذ فيه وجباته الصباحية برفقة بضعة فرنسيين لطفاء. النقود، كان يقول، صارت تتبخر بسرعة عجيبة، لانه لا يستطيع التنقل الا بتاكسي لان انكليزيته جد اولية وتمنعه من المخاطرة متجولا بالباص او بالترام. اعرته اذنا صاغية لكل هذه القضايا آملا ان يتكيف بسرعة وان لا يبذر النقود بالنتيجة، ومع ذلك فان حكاية التاكسي قد اثارت اعصابي. لقد كانت باريس في الحقيقة اكبر من سان فرانسيسكو وكنت اتدبر امري لاجد الطريق لوحدي وبالقروش القليلة التي كانت في جيبي كما بمعرفة اقل من معرفته بالانكليزية. لكن الفرق بين الحالتين ـ وهو يؤدي الى اختلاف اساسي ـ هو انني لم اكن اعتمد على شخص آخر.

Twitter: @ketab_n

بالاضافة الى ذلك فقد ذهب ليقدم شخصه الى القنصلية السويسرية التي بادرت من طرفها باعلامه بان ليس من شك بوجود وظيفة له فيها ولكن ليس مع فيزا سائح، واخبرته بانه حر بين القيام بتظاهرة احتجاجية ضدها او بالتحول الى مواطن امريكي. لكن المواطنة الامريكية لم تكن تهمه، ماذا سيفعل اذن؟ كنت اتساءل. هل سيرجو القنصلية باعادته الى الوطن؟ ربما طلب منها ذلك وربما رد عليه بان المسؤولية هنا مسؤوليته هو، وليست شأنا من شؤون القنصلية السويسرية. ومهما كان الامر فقد تكون لدي انطباع بانه كان يود لو حمله الموج الى جهة اخرى ولكنه حالما سيمتلك طاولة مضمونة وسجائر ونقود يدفع بها اجرة التاكسي وغرفة مريحة بحمام فلن يتأثر ابدا. لقد اعجبته سان فرانسيسكو الف مرة اكثر من «بيك سور» بالرغم مما كان يسميه بالوجهة الاقليمية لها. كانت اقدامه على الاقل فوق رصيف متماسك.

بعد شهر كامل على هذا المنوال، فان جهودي بالانفاق عليه صارت ثقيلة علي جديا. كان لدي احساس ان هذا لا يمكن ان يستمر الى ما لا نهاية. وتوصلت الى ان اكتب له اخيرا بانه اذا فكر بالرجوع الى اوروبا فسأحاول ان اتدبر له تذكرة الرحلة، وبدلا من ان يتحمس لذلك كتب لي بنبرة حدادية بانه سيلجأ الى هذا الحل في الحالات القصوى كما لو انه يقدم لي اكرامية على الاقتراح. واتفق بعد وقت قصير من هذا التغير ان كنا نزور صديقي الرائع «راوول بيرنارد» الذي تهيأت له الفرصة بعد الاخرى للالتقاء بتير يكان في بيتنا. انه يعرف البلبل اذن! لقد ذكر رحلة له على ظهر سفينة شحن فرنسية مارة بسان فرانسيسكو، رحلة مجانية، ودون لحظة انتظار اعلمت تير يكان بالخبر السار، وقدمت اليه وصفا مغريا لعبور البحر عبر قناة بنما وميناء المكسيك واجتياز امريكا الوسطى. وصفا مغريا جدا وجذابا جدا حتى انني كنت ساندم لانني لن اكون في محله. لا اتذكر جوابه بالتفصيل سوى ما ذكر من انه يقبل الامر على مضض. كان بيرنارد يشرع بالعمل، وبأقل من اسبوع وجد سفينة الشحن التي تقدم الرحلة اليه مجانا. كان ينبغي ان تنطلق السفينة بعد ستة وثلاثين ساعة، واذن كان لدينا الوقت اللازم بالدقة للابراق الى تير يكان. ولكي اتجنب اي سوء فهم اوي خطأ بالتأويل من طرف شركة البرق فقد صغت البرقية باللغة الانكليزية، وكانت خمسين كلمة بالضبط، لم اسقط منها ادنى التفاصيل. ولدهشتي العظيمة فقد استلمت مع البريد

Twitter: @ketab_n

العـائـد ـ حيث المـركب في عرض البحـر آنذاك ـ جوابا منه يتضمن رفض سيادته التزاحم في مراكب من هذا الصنف، قائلا بان الواجب كان يحتم تنبيهه قبل بضعة ايام على الاقل، كـ انـه من جهـة اخـرى لم يكن لائقـا مني ان اكتب اليـه رسـالة بمثل تلك الاهمية بلغة يفهمه بشكل سيء. و. . و. . و. .

انـه شخص كريـه! . لقـد كان يذكـر بالـرسالة الجوابية هذه ايضا بانه ليس واثقا من ا رحلة من هذا القبيـل ستبهجـه كثـيرا وبأنـه لن يكـون معـافى وسـط المـوج ويمكن ان يعيبا السـام . . الـخ، وكتب في نهايتهـا تمامـا: هل يمكنك ان ترسل لي بعض النقود؟ . هذه المر كنت مرهقا وتركته ينتظر بدون ادنى غموض. كتبت بعدئذ رسالة اعتذار طويلة الى راوول. لماذا؟ لقـد كان الـرجـل قنصـل فرنسـا ولا علاقـة له من قريب او بعيـد بسـويسرا، وقد بذل قصـارى جهـده لتقـديم خدمـة لهذا القذر الذي لم يكن حتى بمستوى من الأدب لرد التحي بمثلهـا وشكـره على جهـوده! لكن بيرتنـارد كان قد فهم مع ذلك اكثر مني مع اي صنف مر البشر كنا نتعامل. لم يضطرب ولم يتعب وكتب لي:

«سنحـاول مرة اخـرى، يجب تخليصـك نهائيـا منـه، في هذه المرة لدينا الامكانية لأن نجد ا رحلة على متن طائرة، لن يستطيع ان يرفض الآن؟».

ويا الهي الطيب، ما هي الا بضعة ايام حتى كانت لدينا رحلة بالطائرة! هذه المرة نبهة قبل وقت طويل منها. لقد قبل الرحلة، متذمرا بالطبع مثل فأرة محاصرة. الا انه عندما حانـ لحظة الرحيل لم نجد وسيلة لامساكه. لقد غير رأيه هذه المرة ايضا. تحت اية ذريعة؟ لم اع اذكر.

في هذه المـرحلة من علاقتنـا كان عدد من اصـدقائي الحميمين قد سمعوا بما كان يسمو (قضيـة تيريكـان). عنـدمـا كنت اتـواجد في اي مكان كان يجري سؤ الي: «صديقك! ما حدث له؟ هل استطعت التخلص منـه؟ ألم ينتحـر؟ وامتلك البعض منهم جرأة ان يقـولوا. بانني ملك الاغبيـاء: «دعـك منـه يا هنـري! ستكـون بدونـه مرتاحا! لقد ادمى خاصرتك كانت هذه هي النبرة العامة من النصائح التي تصلني. وفي احد الايام وصل (فاردا) لرؤ يتي

Twitter: @ketab_n

كان يسكن بالقرب من (سوساليتو) على طوافة حولها الى بيت وقصر وستوديو في آن واحد. كانت قضية تير يكان قد اغضبته، . وكانت قد وصلته عصارة تفصيلاتها بعشرات الطرق المختلفة. كان مستمتعا بها ومتخوفا منها في ذات الوقت. كان يود الدخول بعلاقة معه، يتحدث عنه كما يتحدث عن احد الوحوش الطفيلية التي يكون القديسون والبسطاء فرائسه السهلة. كان (فاردا) يقترح علي، وهو يرى المأزق الاحمق الذي غطست فيه دون قدرة على التخلص منه اقتراحا فريدا كحل للمشكلة. قال لي بانه توجد امرأة بالغة الثراء في سان فرانسيسكو وهي كونتيسة هنغارية اونمساوية لما تزل جميلة بعد على الرغم من كبر سنها، تعشق «تجميع» البشر غريباء الاطوار من نمط المنجم تير يكان، الاخفائي، انها تحتاج اليه بالضبط. كانت تملك منزلا ضخما، ونقودا كثيرة، وان تستضيف زائرا لمدة سنة او اثنتين هو امر عادي، واذا ما كان تير يكان محدثا لبقا كما يزعم فسيكون مفيدا لخلق سمعة ممتازة لصالون السيدة ولاجتذاب الزوار اليه. ان المشاهير يتزاحمون في بيتها. ثم اضاف: «بالنسبة لشخص مثل تير يكان فان بيتها سيكون جنة حقيقية، هذا ما سأقوم به، حالما اعود الى (سوساليتو) سأطلب من السيدة ان ترتب امسية وتدعو تير يكان ايضا، ستنبهر ما ان يفتح فمه».

ـ هل تظن انها ستنتظر شيئا اخر منه؟ قلت. كونتيسة بين العمرين، ما زالت جميلة كما تقول لا بد ان تطالبه باشياء غير قادر عليها الآن.

ـ اوه! لا تقلق بهذا الشأن! قال بنظرة موافقة. مجرد ان تشير باصبعها حتى تحصل على ارق زهرة من اجمل الرجال في سان فرانسيسكو، بل ان لديها زوجا من الجراء ذات الالسن الطويلة وذات الهيئة الشبقة. لا يمكنك ان تتصور ذلك! كلا. صدقني. اذا اخذته فلاستخدامات صالونها فحسب.

كان اقتراح (فاردا) هذا قد منحني تأثير نكتة جيدة، ولم التفت اليه مجرد التفاتة. في هذا الوقت وصلت رسالة اخرى من تير يكان. رسالة مشحونة بالاتهامات المضادة. لماذا احمل ضغينة ضده وادفعه للسفر؟ ماذا عمل لكي يستحق هذا التعامل؟ هل كان ذنبه اذا سقط مريضا في منزلي؟ وقد ذيل الرسالة بملاحظة يذكرني فيها ساخرا بانني ما زلت على الدوام مسؤولا عن اعاشته وانني قد وقعت اوراقا بهذا الصدد وان هذه الاوراق بحوزته حتى الان.

Twitter: @ketab_n

بل انه كان يلمح الى انه سينبه السلطات الامريكية الى الفضائح التي اثارتها كتبي في فرنسا (كما لو انها غير معروفة!) اذا لم اتراجع طوعا عن موقفي، لا بل انه قادر على اعلامهم بأمور اكثر سوءا.. بانني فوضوي وخائن وملحد، والله وحده يعلم ماذا بعد!.

لا جدوى من القول بانني كدت اقفز الى السقف: «أي خسيس قذر! انه يهددني والله..!.

كان بيرتنارد في اثناء ذلك يواصل جهوده للحصول على الرحلة الثانية بالطائرة. وكان ليليك يستعد للذهاب في بيركللي بسفره عمل سيحاول في غضونها هو بدوره ان يفعل شيئا لترتيب قضية تير يكان الحقيرة، سيحاول على الاقل رؤيته لاقناعه. كما ثمة رسالة من (فاردا) يعلمني فيها بانه قد رتب الامسية عند الكونتيسة وقد اغراها بلباقة بانها ستحوز على روعة كاملة في بيتها.. قضية الكونتيسة مشت اذن، وباختصار فان تير يكان كان هناك، القى نظرة الى الكونتيسة، ليجري بعدها تجنبه مثل طاعون بقية الامسية، كان يلقي بين فترة واخرى ملاحظات حارقة عن ابتذال وحماقة هؤلاء المهاجرين الاغنياء الذين يستغلون صالوناتهم بهدف اشباع شهواتهم المقرفة فحسب.

- اي احمق! صرخت بنفسي. لم يكن يستطيع ان يغير حاله ليساعد صديقا بينما بين يديه مليونيرة!.

انتهى هذا الحادث منذ وقت قصير.

بيرتنارد حصل على رحلة الطائرة قبل اسبوع كامل من وقوعها هذه المرة. نبهت نيافة الكاردينال ان عصفور النقود الجميل تحت تصرفه، هل يمكن التكرم بمحاولة الرحلة. كان جوابا دقيقا وواضحا.. وبعيدا عن ايما غموض. ها هنا ما كان جوهريا في رسالته.. نعم.. سيقبل الرحلة ولكن بشرط ان احول اولا على حسابه في احدى بنوك باريس مبلغا يعادل الالف دولار، وسبب هذا الطلب سهل للغاية: لقد ترك اوروبا فقيرا ولا يريد العودة اليها فقيرا، لقد كنت انا من دعاه الى القدوم الى امريكا واعدا اياه ان اهتم به، وهو انا ايضا من يرغب برؤيته عائدا الى باريس بينما لا يرغب بذلك بمحض مشيئته، لقد قررت التخلص

Twitter: @ketab_n

منه وانا انكث الالتزام المقدس الذي قطعته على نفسي، اما النقود التي صرفتها حتى ذلك الحين فلم يفته تقديم اشارة بصددها مفادها انه قد ترك لي هدية عائلية ثمينة هي ملكيته الاموية الوحيدة الفريدة التي لا تقدر بثمن (كان يعني الساعة الرقاصة طبعا).

كنت اتقرح. رددت عليه للفور بانه اذا لم يستقل الطائرة هذه المرة ولم يهرب من البلاد واذا لم يتركني بسلام فسأقطع عنه المصروف. مضيفا بانني لا اهتم ابدا بما سيحدث له، ولو اراد القفز من اعلى جسور (غولدن غيت) فلن يجعلني هذا لا حارا ولا باردا. وعلى مظروف الرسالة اخبرته ان ليليك سيذهب لرؤيته خلال يوم اويومين ليعيد اليه الساعة التي يرغب بتبجيلها او العيش من ثمن بيعها الى نهاية حياته.

كانت الرسائل تبدو اثناء عودتها السريعة، سميكة. كان ينتابه خوف هائل. اقطع عنه المصروف؟ اتركه دون قرش؟ وحيدا في ارض غريبة؟ هو، هو الرجل المريض، الشائخ، الذي لا يملك حتى حق البحث عن وظيفة؟ كلا.. لن افعل هذا! ليس ميللر الذي يعرفه منذ وقت طويل هو من يقوم بهذا؟ ميللر صاحب القلب الكبير المليء رحمة، الذي يعطي لشخص واحد ما يعطيه لكل الاشخاص ـ الحنون ازاء تير يكان، البائس، المحطم، الذي اقسم ان يحميه ما عاش!.

نعم. اجبت. انه ذات الميللر، انه مرهق، انه مشمئز، ولا يريد اية علاقة معك. كنت اتعامل معه كحشرة تافهة، كمصاص دماء، كنصاب.

بعدئذ اخذ يخاطب زوجتي برسائل طوال متباكية، مليئة بالاستعطاف، ستفهم هي يقينا حالته المكتئبة! ميللره الطيب قد ركب رأسه وسيندم ـ المسكين ـ يوما.. وهكذا، كنت اتوسل اليها ان لا تضعف. كنت اشك باتفاقها معي. كانت تشفق عليه ومقتنعة تماما بانه سيأخذ البطاقة في اللحظة الاخيرة ويركب الطائرة، وانه سينس طلباته المضحكة، «المضحكة» وكررت الكلمة.

كنت افكر بكلمات (راما كريشنا) حول الارواح المعلقة بشبكة العالم. لا احد يمكن ان

Twitter: @ketab_n

يعيدها الى رشدها. انها لا تستيقظ البتة حتى تحت ضربات البؤس المتكررة، وتحت وطأة الهموم والعذابات التي لا توصف.

طيلة الايام الساخنة التالية كنت افكر بكثير من الاشياء، خصوصا بحياة الصعلكة التي مارستها في بلدي اولا ثم في الجهة الاخرى من المحيط. كنت افكر بالصد العنيف الذي كنت اواجهه من طرف اصدقاء حميمين، ممن يسمون اصدقاء، وبالوجبات التي كانت تقدم لي عندما كنت اجرد مثل ملاح بعد غرق السفينة، وبالمواعظ التي ترافقها. اتذكر المرات الكثيرة التي كنت اقف فيها امام واجهة مطعم من المطاعم، كنت انظر للآخرين الذين يأكلون، لم يكونوا بحاجة الى كل ذلك الطعام، وقد اكلوا حتى الآن اكثر من الضروري.. اتذكر املي العبثي بان يروا الجوع في عيني ويدعوني لمشاركتهم وجباتهم او اعطائي البقايا. اتذكر الصدقات التي اخذتها والدريهمات التي رميت نحوي من قبل مارة، حفنة من العملات الصغيرة، وكيف كنت التقطها مثل جرو حسن التدريب. كنت اخذ ما يقدم لي لاعنا كل اولئك الوسخين بصوت خفيض. لم اكن مباليا بالصد الذي واجهته، لم اكن ابالي بالمهانات والمذلات، قطعة الخبز هي قطعة الخبز دائما. واذا لم اشكر المعطي دوما بقلب طيب وبمسكنة فقد كنت اشكر طالعي الحسن. كنت اتوصل دون شك لأن اقول لنفسي بان لدي الحق بشيء اكبر من قطعة خبز، وان المحطم الاكثر بؤسا في مجتمع متحضر له الحق بوجبة غذاء عندما يحتاج اليها. ولكنني لم البث ان استوعبت الاشياء بشكل اكثر شمولا. لم اتعلم فقط ان اقول: «شكرا ايها السيد!» ولكن ايضا تعلمت ان اقف على قوائمي الخلفية واطلب منه، دون ان يكون الامر عسيرا علي كثيرا. في بداية الامر وجدته مضحكا الى حد ما. انها تجربة على الجميع خوضها بين وقت وآخر، خصوصا اولئك المولودين بملاعق ذهبية في افواههم.

لكن وساخة تير يكان تشوه الامور حول هذه النقطة! انه يطرح المسألة وكأنني عنده وعدته ان اعتني به فاني مجبر على دفع مصاريف فندقه وباراته ومسارحه وتنقله بتاكسي: واخيرا بوضع الف دولار في حسابه في باريس فهو يرفض ان يعود فقيرا من جديد! كما لو ان مثل هذا الامر متوقف على رغبتك الطيبة فقط!.

Twitter: @ketab_n

ها انذا استذكر زاوية من زوايا برودواي في الشارع الثاني والاربعين. اتفحص في زحمة المارة خلال امسية باردة مطيرة بحثا عن وجه ودود، انتابني حينئذ احساس غامض اكد لي بانني سوف لن التقي بصدود جافة ولا ببصقة بدل الدريهمات، لنحاول هذا، «آه! من فضلك ايها السيد، هل يمكنك اعطائي ما يسمح لي باحتساء قدح من القهوة؟» كان يزودني دون توقف بقطعة نقدية دون ان يلقي علي مجرد نظرة، قطعة من فئة العشورا. كم يكون جميلا لو استطعنا فقط ان نمسك روحا كريمة من ياقتها، من طية المعطف ونسحبها بلطف الى الزاوية قائلين بيقين عميق وبلهجة حمامة وديعة: «ايها السيد قل لي ماذا استطيع ان افعل بهذا؟ لم اكل منذ صباح البارحة الباكر، اشعر بالبرد وارتجف حتى النخاع، هل بامكانك اعطائي دولارا، او اثنين ربما؟ زوجتي تنتظرني في البيت، هي جائعة كذلك وهي مريضة، ايها السيد انني احتاج الدولار، احتاجه بشدة» هذا النوع من الاشياء ليس موجودا في الكتب ابدا، يجب ان نؤمن باننا سعداء اذا كان ما نحصل عليه هو قطعة نقدية من العشور الكندية، او قطعة خبز بائتة، نؤمن باننا سعداء عندما سيصطادنا بعضهم نحن بدورنا، عندها يمكن ان نقول من اعماق قلوبنا: «هاك، خذ هذا! اعمل به ما تشاء» ونفرغ جيوبنا اثناء الكلام عائدين الى المنزل تحت المطر مستغنين عن الاكل.

هل قمت انا بذلك؟ نعم، لقد فعلته! واكثر من مرة، وكان امرا رائعا، رائعا ربما اكثر من اللزوم. من السهل ان نفرغ جيوبنا عندما يكون ذات الشخص واقفا هناك امام نفسه يمد يده مثل كلب خائفا متلعثما، من السهل ان نستغني عن الوجبة اليوم عندما نعرف بانها ستكون لدينا غدا، او في يوم آخر، ليس لهذا من اهمية. ايها الامير المحسن انت تقوم بتجارة رابحة. ليس مدهشا ان نحني الرأس خجلا بعد انجاز عمل الاحسان الصغير ذاك. غالبا ما أسأل نفسي، لمَ لا يقوم الشبان ذوو المال الوفير بالقيام بهذا العمل، لماذا لا يخلقون المناسبات ليبتهجوا بنفقات اقل. فكروا بهنري ميللر، امبراطور كاليفورنيا غير المتوج، وهو يخرج من البنك كل صباح، جيوبه مليئة بقطع نقدية من فئة النصف دولار يقوم بتوزيعها على طريقة الملك سليمان على الفقراء المصطفين على طول الرصيف، وهم يرفعون قبعاتهم الواحد تلو الآخر بشكل مهذب، قائلين: «شكرا ايها السيد!» اي محفز بالنسبة لشخص مصاب بالكآبة افضل من هذا النوع من العلاج قبل الذهاب الى العمل! لقد كان لمغفلنا تير يكان هو ايضا

Twitter: @ketab_n

الكثير ليعطيه اثناء سنيه الماضية كما قيل لي، بل انه حتى عندما لم يكن يمتلك شيئا مهما فما كان ليرفض ان يتقاسمه مع الآخرين، ولكنه لم يكن ينزل البتة الى الشارع مستجديا! عندما يستجدي فقد كان يفعل ذلك على ورق رسائل جميل، بكتابة انيقة، بقواعد ونحو وعلامات وقف وفواصل واعرابات دقيقة على الدوام. لم يجلس البتة الى منضدته ليكتب رسالة التماس ببنطلون مثقوب من الاسفل او مرقع. ربما كانت غرفته شديدة البرودة، وربما كان بطنه خاويا، وربما كان عقب سيجارته يأتيه من سلة المهملات.. لكنه.. لا حاجة لي ان اقول المزيد.

وعلى اية حال فلم يأخذ الطائرة هذه المرة ايضا، وعندما كتب لي صابا جام غضبه، لم اكن لاشك لحظة بانه كان يفعل بجدية، ولكي اتحاشى ان اعيد الكلام ذاته معه فقد اعلمت جلالته الشيطانية على جناح السرعة بانني سوف لن افتح ايا من رسائله القادمة بعد ذلك، وبعد ان اطفأت حرقة قلبي اسلمته لمصيره. لن يرى بعد اليوم شكل خط يدي ولا الوان نقودي. لم يمنع كل هذا، بالطبع، رسائله من التدفق، كانت قد اخذت بالتباعد زمنيا ولكنها لم تفتح ابدا، انها محفوظة الآن باختامها في جامعة كاليفورنيا في لوس انجلوس.

فجأة تذكرت الطريقة التي روى لي بها قطيعته مع (سوندرار) صديقه العتيق منذ ايام الفرقة الاجنبية، كان ذاك في واحدة من تلك الامسيات التي كان يستذكر فيها زمن القلق الجميل ويستعيد فيها اصدقاءه الرائعين (ساندرار) و(كوكتو) و(راديجيه) و(كسلنغ) و (موديلياني) و(ماكس جاكوب) وآخرين، والطريقة التي اختفوا او هربوا فيها منه الواحد بعد الآخر، الجميع ما عدا ماكس، لقد بقي ماكس مخلصا له حتى النهاية، لكن ساندرار الذي يتحدث عنه بكثير من الحرارة ويحترمه من اعماق قلبه.. ساندرار هل تخلى عنه هو ايضا؟ ها هنا بعض العبارات التي حكى لي بها القضية:

ـ في احد الايام ـ انت تعرف كيف يحدث هذا هكذا! ـ غضب ساندرار مني، وكانت النهاية، لم اجتمع به ابدا مرة ثانية، حاولت لكن محاولاتي باءت بالفشل، لقد اغلق الباب».. ولم اكن قد كشفت له مطلقا ما كان ساندرار قد قاله لي عنه في سنة ١٩٣٨ عندما كنت قد ارتكبت للتو الخطأ الشنيع باخباره بتعرفي على صديقه القديم تير يكان:

Twitter: @ketab_n

ـ تير يكان. قال لي. انه ليس بصديق. انه جثة حية!» لنغلق الباب مصطفقا.

اه! وساعته الرقاصة تلك! لقد عهدت بها الى ليليك ليعيدها اليه. لكن ليليك كان يصر معاندا ان يعرف قيمة الجهاز الحقير بالضبط، وقبل ان ينقلها اليه ذهب ليستشير الاخصائي الذي اعطاني تير يكان عنوانه عند الحاجات القصوى قيمتها؟ الشاب الاخصائي كان يعتقد باننا محظوظون اذا حصلنا على خمسين دولارا ثمنا لها، كما يعتقد ان تاجر تحفيات ربما سيدفع اكثر قليلا من ذلك. هذا قليل.

ـ هيا، لنذهب، هذا مضحك. قلت عندما روى ليليك الواقعة.

ـ كان جيدا ما خطر بذهني اذن، قال ليليك. لقد ذهبت كذلك لاستشارة تحفياتي وصير في. انها البضاعة ذاتها. لا يوجد زبائن لهذا النوع من الحاجيات العتيقة. انها ذات آلية رائعة، ولكن من سيشتريها؟ لقد فكرت بانك مهتم بمعرفة هذه الامور بسبب القصة الطويلة التي قام بها لوطيك.

ثم روى لي حديثه التليفوني مع تير يكان، ويبدو ان تير يكان كان في حالة غضب شديدة منعته من استقباله. استمر الحديث نصف ساعة تقريبا، تحدث فيها تير يكان لوحده طيلة الوقت.

ـ خسارة انك لم تكن حاضرا ـ قال ليليك. لقد كان الرجل كما ينبغي ان يكون. ما كنت اتصور ان يوجد شخص اكثر حنقا وخبثا ومهارة منه.. الاشياء التي قالها عنك.. يا للمسيح! انها ستثيرك! اما الاوصاف التي نعتك بها..! بعد بضعة دقائق من حديثه صرت اتلوى من الضحك، وبين تارة واخرى كنت ادفعه لمزيد من القول بخفة، لا لشيء الا لارى الى اي مدى سيذهب. خذ حذرك على اية حال! سيقوم بعمل من شأنه خلق المنغصات لك. اظن بانه قد غدا مجنونا حقا. الشيء الاخير الذي اتذكره انه قال بانك ستكون ضمن آخر اخباره للجرائد الفرنسية. لقد كان يترافع ضدك. وهو مستعد ان يخلص المعجبين بمحبوبهم هنري ميللر مؤلف (المدارات)، حكيم الجبل منه.. اي مهرج! هذه كانت ملاحظته الاخيرة.

Twitter: @ketab_n

ـ الم يقل باني ساضحك عليه!.
ـ بلى، قال هذا ايضا.
ـ لقد حدثني قلبي بذلك.

كانت اولى اشارات دسائس تير يكان قد اخذت شكل رسالة موجهة الي من مكتب القنصلية السويسرية في سان فرانسيسكو، رسالة رسمية مؤدبة تعلمني ان تير يكان قد قام بزيارة للقنصلية في حالة يأس، خالصة الى القول ان القنصلية تتمنى معرفة وجهة نظري في الموضوع. قمت بكتابة رد مطول الى حد ما، مقترحا ارسال نسخ من رسائله الموجهة الي، مكررا ما كنت قد قلته له بان كل شيء قد انتهى معه. ثم وصلت رسالة اخرى من القنصلية تذكرني بانني كفيله الرسمي مهما حدث، مما حفزني لان ابعث اليها بالرسائل التي كنت اتحدث عنها، ارسلت نسخا مصورة منها، ورحت انتظر.

كنت اتصور مطمئنا ما سيحدث، لا نستطيع ان ننفي البتة ما كتبناه بايدينا. الرسالة اللاحقة من القنصلية كانت توضح لي بأن حالة تير يكان شائكة في الواقع، وان من الواضح ان المسكين كان قلقا بعض الشيء، وان القنصلية ستكون سعيدة للغاية باعادته الى البلد اذا ما قدم المبالغ اللازمة ـ وبالطبع لم يكن يملكها ـ وانه من المرجح ان نتوصل الى مساومة ما اذا ما قبلت بمناقشة نائب القنصل بهذا الشأن. وقد كانوا يتدبرون طيلة ذلك الوقت لتير يكان افضل الخدمات. جاء النائب اذن واجرينا حوارا طويلا. كانت زوجتي معنا لحسن الحظ معززة اقوالي. بعد وجبة خفيفة، التقط الرجل كاميرا وقام بتصويرنا وتصوير المكان الذي كنا نعيش فيه. كان المكان قد سحره، وطلب منا ان يعود للزيارة صديقا.

ـ عندما افكر ان هذا الغبي لم يستمتع هاهنا. كان يصرخ هازا رأسه. انها جنة حقيقية.
ـ فردوس مفقود. قلت برنة خاصة.
ـ ماذا ستفعل له؟ تجرأت على سؤاله لحظة مغادرته.
رفع اكتافه قائلا:
ـ ما الذي نستطيعه مع مخلوق مثل هذا؟.

Twitter: @ketab_n

بعد ذلك قام بتقديم شكر لي لما قمت به اكراما لواحد من مواطنيه، معبرا عن اسفه لما سببه، مضيفا:

- عليك ان تتحلى بصبر كبير.

لم اصغ بعدئذ لاي حديث يجري بصدده، كما لم اعد اعرف ماذا يحدث له، حتى اليوم الذي استلمت فيه نسخة من مجلة (جيولون) عدد تموز- آب - ايلول ١٩٥٤ معلنة خبر موته. واستلمت من رئيس تحريرها (تيوفيل بريان) وهو الصديق الوحيد والاخير لتير يكان بضعة تفاصيل حول الفترة الاخيرة الواقعة ما بين افتراقنا في مونتيري - قبل ثلاثة اشهر من وصوله الى بيك سور- حتى نهايته المثيرة للشفقة.

كنا قد افترقنا في اذار ١٩٤٧، ليبقى في طي الكتمان ما كان قد قام به طيلة الفترة الممتدة حتى خريف ١٩٤٩ وهو تاريخ ترحيله من قبل سلطات الهجرة الامريكية. بريان نفسه لم يخبر ني باشياء ذات اهمية حول هذه الفترة. الفترة السوداء بكل وضوح. في نهاية ايلول كان تير يكان يشاهد مع بريان في بريطانيا حيث تدبر له بريان ملجأ. لم يبق هناك سوى ستة اسابيع، وكما عبر بريان في اشارة من رسالته: «لقد ادركت بسرعة ان الحياة المشتركة لا يمكن ان تمتد الى ما لا نهاية».

وفي ١٧ تشرين الثاني قاده صديقه الوفي الى باريس بسيارة، ليستقر في الفندق العتيق ذاته موديال. وعلى الرغم من ان حالته كانت هي هي فان الامور كانت تجري من سيء الى اسوأ بسرعة كبيرة. وفي نهاية الامر وفي ذروة يأسه اجبره القدر ان يقبل المهانة الاخيرة، ملتمسا قبوله في البيت السويسري للمتقاعدين العجزة في شارع سان - ماندیه، وهو معهد اسسه اهله. هناك اختار حجيرة صغيرة مطلة على الساحة، من شباكه كان يلمح اللوحة التذكارية لتدشين المؤسسة من قبل امه واخوته.

كتب بريان ان: «جميع اصدقائه ما عداي قد هجروه، وقد رفضت مخطوطاته العديدة من قبل الناشرين، وان درامات عنيفة ستنشأ قريبا بينه وبين مديري المأوى. كنت اجهد

Twitter: @ketab_n

لتهدئته، موضحا له ان هذه الحجيرة التي قام بترتيبها بشكل رائع تشكل مرساة نعمته الاخيرة».

جاءت النهاية على حين غرة. وحسب مقالة مؤرخ الاموات بريان في (جيولون) فان موريكان كان في صبيحة يوم موته قد استقبل صديقة عزيزة، امرأة. كانت الزيارة تجري في منتصف الظهيرة. قام هو في لحظة وداعهما باخبارها ببساطة شديدة انها سوف لن تراه بعد الآن، ولما كان يبدو بصحة جيدة ومزاج صاف ولما لم يكن في حديثهما ما يدعو للريبة، فان المرأة قد استنتجت بان ما يقوله ليس سوى مزحة. نحو الساعة الرابعة من ذاك اليوم كان يمر بأزمة قلبية. نهض ذاهبا الى المطبخ بحثا عن مساعدة. لم يتقدم احد رغم حالته الخطيرة لتقديم يد العون بسبب التخوف الشديد. جرى استدعاء الطبيب ولكنه كان مشغولا، سيصل في وقت متأخر عندما سيكون حرا. عندما وصل كان قد تأخر اكثر من اللزوم. لم يتبق سوى ان ينقل على جناح السرعة وفي آخر اللحظات الى المستشفى. كان في حالة غيبوبة عند وصوله الى مستشفى سان ـ انطوان. في ذلك المساء وفي الساعة السادسة والنصف مات دون ان يستعيد وعيه. . كتب (بريان) في ٣١ آب ١٩٥٤ عن اللحظات الاخيرة له: «وحيدا مثل فأر، عاريا مثل آخر الصعاليك».

Twitter: @ketab_n

شيطان في الجنّة

هنري ميلر

في هذه الرواية يرسم لنا ميلر واحدة من تلك الشخصيات التي يصعب نسيانها، «تيريكان» المنجّم، العرّاف، محضّر الأرواح، الفيلسوف والفنان «في روحه جميع الأنماط التي تستدعيها المصطلحات، قمريّ وزحليّ وضريحيّ، ويمكننا أن نتخيّل مومياء تحت جلده، ونرى عصفورة الشؤم الحاطّة على كتفه الأيسر، ونشعر بضوء القمر الذي يُفسد دمه، ويضفي على بشرته شحوب سجين أو مدمن أو ساكن كواكب محرّمة».

هذا الـ «تيريكان» الذي صبّت عليه الأقدار كل ما استطاعته من آلام وأمراض ومنغّصات، يرتكب ميلر خطأ جسيماً باستضافته له في منزله، شفقة عليه وعطفاً، لتبدأ معاناته وزوجته وطفلته من هذا الضيف الثقيل الثقيل، وليخرج إلينا بهذه الرواية الماتعة شديدة الطرافة، شديدة العمق في سبر أغوار الذات البشرية بما فيها من تناقضات ومجاهل، وفي تمزّقها المأساوي بين الأمل واليأس والخوف والرجاء.

@kotob_n

ISBN 978-9-9570900-6-7

9 789957 090067

أوراق

تلفاكس 5522544 6 00962 ص.ب 950252 عمّان 11195 الأردن